الموجز في العقيدة الإسلامية

مختصر عقيدة الإمام السفاريني

تقديم واختصار
الدكتور مصطفى حلمي
الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

الكتاب : الموجز في العقيدة الإسلامية
مختصر عقيدة الإمام السفاريني

المؤلف : الدكتور مصطفى حلمي

الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت

عدد الصفحات: 224

سنة الطباعة: 2006 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

Title : AL-MŪJAZ
FĪ AL-ᶜAQĪDAH AL-ᵓISLĀMIYAH

The summary of the Islamic belief
A summary of al-imam al-Safarini's doctrine

Author : Dr. Muṣṭafā Ḥilmi

Publisher : Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages : 224

Year : 2006

Printed in : Lebanon

Edition : 1st

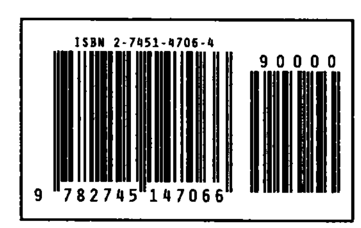

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد:

فإني أكتب مقدمة هذا الكتاب متوقعًا مقدمًا الأصوات التي سترتفع معترضة وهي: إما ساخرة مستهزئة بلسان بعض العلمانيين المتوهمين أن تعميق التدين يعرقل التقدم ونحن في مطلع القرن الواحد والعشرين، وإما غاضبة بسبب اختصار أحد كتب التراث بغير إبداع وإنشاء جديد.

وبهدوء تام، وبنية خالصة لإقناع كلا الطرفين، أراني أعذر أصحاب الطرف الأول؛ لأنهم ضحايا الغزو الثقافي الغربي الذي صور لهم التدين في الإسلام على نمط التدين في المسيحية، إذ كان عائقًا هناك كما يذكر الفيلسوف براتراند رسل بسبب سلطان رجال الكنيسة وحجرها على العقول، ولو أعطوا اهتمامهم للثقافة الإسلامية لتبين لهم أن التجربة المسجلة بصفحات التاريخ أسفرت عن بلوغ أمة الإسلام قمة حضارتها المشعة، عندما جمعت بين العقائد الإيمانية والعلوم التجريبية، كما نظمت شئون حياتها بالتحقيق العملي للعبودية لله عز وجل في دروب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية، وكانت العقائد الإسلامية كالدوائر المتداخلة، يتصل بعضها ببعض بإحكام، والأمثلة كثيرة: فإن محبة الله تعالى وخشيته تورث اليقين والتقوى، ومحبة رسوله ﷺ تورث الحرص على الاقتداء به، والإيمان باليوم الآخر يساعد على بذل ما في الوسع من الصالحات للعون على اجتياز مراحل العمر الثلاث: في الدنيا ثم البرزخ ثم على الصراط في الآخرة.

وعلى أمتنا المحافظة على تراثها النقلي ومصدره الأعلى (الوحي)، والتعلق بالدين كمنقذ لأزماتنا ومانع لانحدارنا الذي نشكو منه، وحتى لا نمر بانحدار التجربة الغربية التي هوت بها إلى أزماتها الحالية كما عللها الفيلسوف الفرنسي المعاصر رينيه جينو بثلاثة أسباب:

١ - التهوين من شأن الدين والعمل على أن يصبح شيئًا يوضع في زاوية على حدة.

٢- إنكار الاعتراف بأي سلطة فعلية في الميدان الروحي، وأصبح الدنيويون الجهلاء يستبيحون مناقشة أمور مقدسة والطعن في طابعها، بل وجودها نفسه، وأصبح الدني يحكم على العلي، والجهل يضع الحدود للحكمة، والخطأ يسبق الحقيقة، والإنساني يحل محل الإلهي، والأرض تنتصر على السماء، وصار الفرد المقياس الذي تقاس به الأشياء جميعًا ويطمح إلى أن يملي على الكون قوانين استخرجها من عقله النسبي المحدود الذي يخطئ ويصيب.

٣-تغلبت (وجهة النظر الدنيوية) وارتفع شأن الروح المعادي للتراث النقلي وهو الروح الذي تلتقي فيه كل التيارات الحديثة.

كذلك أعذرهم تارة أخرى؛ لأنهم لا يتابعون حركة الأصوليين المسيحيين ذات النفوذ السياسي الواسع في المجتمع الأمريكي ودول أوربا المعتنقة للمذهب البروتستانتي تأييدًا لإسرائيل التي أنشئت بدورها على أساس عقيدة دينية وأخذت أبواق الدعاية المضللة تصف رؤساءها بأنهم علمانيين ولا دينيين حتى لا نصدق ما يجري أمام أعيننا من شعارات دينية لا تخطئها عين، كلبس الطاقية شعار التدين والبكاء أمام حائط المبكى، وشعار النجمة السداسية على العلم، وحرص الجيش على تعيين حاخام في كل كتيبة ويصاحبها في المعارك العسكرية كما شاهدنا في حرب سنة ١٩٦٧م.

وراء هذه الظواهر، يأتي تحليل أحد كتابهم ليحسم الأمر في صالح المتدينين اليهود، فإلى من يشكك في واقع المجتمع اليهودي الراهن على أساس ديني، نقدم خلاصة ما كتبه (شلومون بن عامي) الأستاذ بجامعة تل أبيب وعضو البرلمان الإسرائيلي عن حزب العمل، فبعد أن تأسف على تفتت الصورة الأسطورية التي آمل المؤسسون من الصهاينة على أن تكون بوتقة صهر، انفجرت الصراعات العنيفة بين الجماعات اليهودية في أنحاء العالم وبددت الحلم فوقعت هذه الجماعات بين (الحاخمية) المتزمتة، وفجور العلمانية الملحدة.

ويختم مقاله بتصوير الصراع الدائر حتى الآن "حيث انتقل مع اليهود إلى أرض فلسطين المحتلة، وقد كانت الصهيونية العلمانية تخطط لقيام (دولة يهودية) علمانية محاولة التوفيق بين القيم الدينية التي لا تؤمن بها وبين الحاجة إليها كإطار تاريخي، إلا

أنه مع مرور الوقت أخذ نجم القوى الدينية المتطرفة في الصعود"[١].

كذلك فإن الطابع المسيحي لحضارة الغرب -بالرغم من أنه غير ظاهر للعيان لأول وهلة -فإن الدين هناك يختفي وراء ستار، أمام أمة الإسلام بالذات، كما يرى الأستاذ العقاد كما سنرى- ولكنه يستدعى من مكمنه لإيقاظ باعث العداء نحو المسلمين بعد اختفاء (الاتحاد السوفيتي).

ونكتفي في هذه العجالة برأي المؤرخ البريطاني المسموع الكلمة في قومه أرنولد توينبي- الذي عكف على تتبع حضارات العالم كلها تاريخيًا وفلسفيًا وأثبت أن الحضارة الغربية ليست إلا واحدة بين ثلاثين حضارة سبق لها أن انحلت وتدهورت، ولمنعها من اللحوق بسوابقها فلابد من العودة إلى الاتجاه الديني، ويأمل بأن يكون خلاص الغرب بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين مؤكدًا ذلك بقوله: (إن الغرب يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفًا روحيًا يضمن سلامته بالقوة المادية التي ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية)[٢].

ويريد توينبي إحياء المسيحية من جديد بالرغم من انقطاع صلتها بالأنظمة في السياسة والاقتصاد والاجتماع، فهو يرى بتأملاته وبحوثه أن العقيدة ما زالت باقية، يرضعها كل طفل غربي مع لبن أمه، ويستنشقها كل رجل وامرأة غربيين مع الهواء الذي يتنفسانه، مؤكدًا تغلغل الدين في نفوس بني جلدته، وشاكًا في (جدية الجهود التي بذلها كل من: ديكارت وفولتير وماركس وماكيافيليلي وهوبز وموسيليني وهتلر لانتزاع الصبغة المسيحية عن الحياة الغربية)[٣].

---

(١) نقلاً عن جريدة الشعب القاهرية في ٢ مارس ١٩٩٩ م ص ٧.

(٢) توينبي: بحث في التاريخ (نقلا عن كولن ولسون. سقوط الحضارة ص ١٦٥، ط دار العلم للملايين - بيروت ١٩٥٩م).

(٣) توينبي: مختصر تاريخ العالم ج ٢ ص ٢٠٨

ولكن أصابه الحول عند النظر إلى أمة الإسلام فكان حريصًا على أن تظل الوحدة الإسلامية نائمة، منوهاً بأن يضع الغرب في حسابه أن النائم قد يستيقظ ومحذرًا قومه من هذه اليقظة (الإسلام والغرب والمستقبل) تعريب الدكتور نبيل صبحي -دار العربية -بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

وكان الأستاذ العقاد من الواعين لدخائل الغرب في دوافعه الدينية بالمستعمرات وأغلبها يقع في عالمنا الإسلامي، فكتب يعرفنا بأن (السياسة اللادينية تقف عند فرنسا ولا تتعداها إلى المستعمرات)[١]، كما أيقظنا من غفلتنا بقوله: (من ألقاب التاج البريطاني الحارس للديانة المسيحية)[٢].

كما لم يفته تتبع أمارات الصبغة المسيحية للحضارة الغربية، بما تكرر على ألسنة فلاسفتها، وساساتها من دعوة إلى الغزو باسم المسيح عليه السلام، وبدليل أن التبشير هو الأول في الترتيب قبل الاستعمار والاستغلال، ومن رأيه أن الغرب يتحاشى إثارة العاطفة الدينية لدى المسلمين.

ويبقى حديثنا للطرف الثاني المعارض للتصرف في كتب التراث بالاختصار فنقول: من مبررات الاهتمام بكتب التراث ومنها هذا الكتاب تصحيح العقائد التي شوهت في السنين الأخيرة، إذ يلاحظ أن عامة التصور الديني لدى المسلمين منذ عصر الاحتلال العسكري الأوروبي أخذ ملامح متباينة، فاختلف باختلاف المدارس الوطنية التي خطط المبشرون مناهجها، أو الأجنبية التي أنشأها الاستعمار لتربية أجيال تسقى من معين ثقافته، مع فشو الأمية، وسيطرة الفرق الصوفية بعقائدها البدعية على الجماهير، فنتج عن ذلك اضطراب في التصور العقائدي وأصبحت ملامحه تتوزع في الغالب حسب التصنيف التالي:

١ - وقف البعض عند مظاهر التدهور ولم يعنوا بالبحث عن العقائد الصحيحة من مصادرها، إذ خلطوا بين أحوال المسلمين المتدهورة والإسلام في أصوله ومنابعه، فانصرفوا عن التدين وأهملوا الدين إلا في المناسبات والأعياد وعنوا بالشكل دون المضمون.

٢ - خضعت العامة للصوفية وعاشت أجواء من الجهل والخرافات، وأصبح التدين عندهم زيارة أضرحة واحتفال بالموالد.

---

(١) الإسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله، العقاد، ص ١٠٥ دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٦٩م.

(٢) نفسه ص ٦١.

٣- اعتقد بعض خاصة المثقفين بوحدة الأديان فالإسلام عندهم كالنصرانية واليهودية دون تمييز.

٤- غلب على أصحاب الثقافة الغربية تصور الدين كعاطفة قلبية تخضع للعلاقة بين العبد وربه ولا شأن له بالحياة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو التربوية.

وكانت الهزائم المتوالية، والتقهقر المشين في النـــزال مع قوى الغرب ورأس الحربة إسرائيل.

وكانت بوادر اليقظة التي جذبت الدارسين والمحللين بمراكز البحوث، وظن بعضهم كما يرى الدكتور مراد هوفمان أنها حركة اجتماعية تبدي احتجاجها، أو تعبيرًا عن العجز التكنولوجي، ثم تبين خطؤهم الفادح؛ لأنهم عجزوا عن فهم العامل الديني الأصيل، ولم يتفهموا التدين عند الآخرين أي (الذين يأخذون الدين مأخذ الجد، ويرونه محور حياتهم)[1].

أليس من (المصلحة) في ضوء هذه النبضات التي عادت تضخ في قلب الأمة، أن نمدها بكتب التراث في شكل مختصرات كمداخل للتوعية الصحيحة بعقائد الإسلام؟

والفائدة المرجوة هي نشر المعلومات الصحيحة على أوسع نطاق ممكن بطبعات شعبية في وقت حالت فيه ارتفاع أسعار الورق وتكاليف الطباعة دون نشر الأصول وهي من شأن خاصة طلاب العلم.

ومؤلف المختصر هو محمد بن علي بن سلوم التميمي (توفي سنة ١٢٤٦هـ) واشتهر الكتاب بأنه (مختصر شرح عقيدة السفاريني).

أما السفاريني فهو الشيخ/ محمد بن الحاج أحمد بن سالم السفاريني، نسبة إلى سفارين، قرية من أعمال نابلس ولد سنة ١١٤١ هـ وتوفي سنة ١١٨٩ هـ وقد طبع المختصر بعنوان: مختصر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية

شرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية

(١) الإسلام كبديل، د. مراد هوفمان، مجلة النور الكويتية - مؤسسة بافاريا، ترجمة د/ غريب محمد غريب، شوال ١١٣ هـ - ١٩٩٣م.

بتحقيق الشيخ محمد زهري النجار من علماء الأزهر

نشرته دار الكتب العلمية -بيروت ويقع في ٥٧٦ صفحة.

وهو الأصل الذي اعتمدنا عليه في الاختصار.

ومنهج المؤلف لا يختلف عن مناهج كتب العقائد الإسلامية في عرض قضاياها بشكل مفصل، مع تدعيم عقائد أهل السنة، والجماعة، ردًا على الفرق المخالفة لهم، فينفعنا بإعادة صقل المفاهيم العقدية بالكتاب والسنة وإحيائها في العقل والوجدان لصد موجة المطالبة بالتوافق مع العصر -وهي في حقيقتها تغيير للدلالات الثابتة بمفردات العقائد الإسلامية المتوارثة جيلا بعد جيل والمجمع عليها بواسطة علماء السنة، وهي في عصرنا الحاضر بمثابة (الخندق)الثقافي الذي نحتمي به ونتفادى السهام الموجهة إلى العقائد والقيم في شكل حملات طعن وتشكيك وتشويه مستغلة التقدم التكنولوجي بوسائل الاتصال كالبث الفضائي والإنترنت، ويا حبذا لو استعملنا نفس هذه الوسائل في الدعوة إلى الله عز وجل وشرح عقائد الإسلام ومبادئه كدين عالمي للبشرية كافة، ورد كيد (العولمة) إلى نحور أصحابها.

وقد التزمت بمنهجي بحذف الأراء المكررة الدائرة حول إحدى العقائد، إذ يلاحظ صعوبة متابعة المؤلف بسبب غزارة النقول عن العلماء وعرض المذاهب في كل مسألة، واستبعاد نقاط الخلاف التي ربما تثير البلبلة في أذهان غير المتخصصين، مع المحافظة على ارتباط أبواب الكتاب بترتيبها حسب الأصل.

واسأل الله العلي القدير أن ينفعني به والمسلمين، ويجعل عملي خالصًا لوجهه

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية: ١٤ ذي الحجة ١٤١٩هـ.

أول إبريل ١٩٩٩م.

الباب الأول

في معرفة الله تعالى، وما يتعلق بذلك من الصفات التي يثبتها المتكلمة، كالسلف، وأسمائه تعالى وغير ذلك

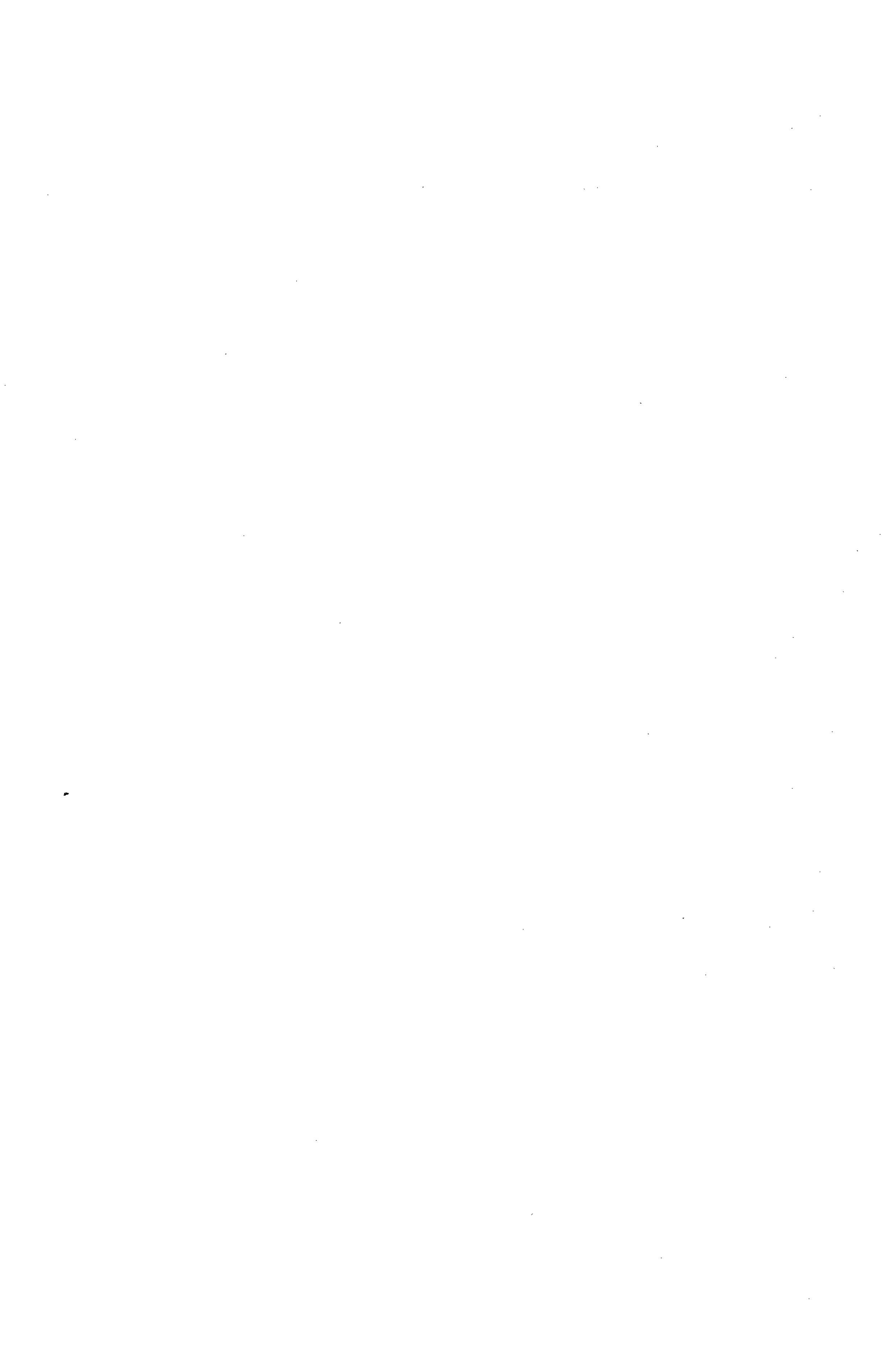

عرض المؤلف في هذا الباب لأقوال المعتزلة بأن معرفة الله عز وجل وجبت عقلا لا شرعًا، بينما يرى علماء الحديث والسنة أن وسيلة معرفة الله تعالى هي الفطرة، وأورد قول الشيخ عثمان النجدي (أول نعم الله الدينية على عبده، أن أقدره على معرفته فيجب على كل مكلف شرعًا، أن يعرف الله تعالى بصفات الكمال).

ثم يخصص فصلا في بحث أسماء الله جل وعلا، يمهد له بتنبيهين:

(١) **الأول**: اختلف في مراتب إحصاء أسماء الله تعالى[1] التي من أحصاها دخل الجنة. وهذا قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح.

فقيل: أحصى ألفاظها وعددها، وقيل: فهم معانيها ومدلولها، وقيل: دعاه بهما كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ وهذا على مرتبتين.

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة. والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى؛ وصفاته العلى، ولذلك لا يسأل إلا بها فلا يقال: (يا موجود) أو (يا شيء) أو (ياذات) اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

قال في (البدائع) وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: نتخلق بأسماء الله، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة: الفلسفة التشبه به على قدر الطاقة.

والحاصل: أن لهم أربع مراتب، أشدها إنكارًا عبارة الفلاسفة، هي التشبه به تعالى، ثم يليها عبارة من قال: (التخلق بأسمائه تعالى) وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برجان وهي التعبد، وأحسن من الجميع الدعاء، وهي المطابقة للأمر القرآني، وبالله التوفيق.

(٢) **الثاني**: الإلحاد في أسمائه تعالى المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ

---

(١) يقصد حديث الرسول ﷺ (لله تسعة وتسعون اسمًا).

ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (الأعراف: ١٨٠) هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما تدل عليه مادة (ل ح د) تقول العرب (التحد فلان إلى فلان) إذا عدل إليه، والإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن تسمى الأصنام بها كتسميتهم (اللات) من الإلهية و(العزى) من (العزيز) وتسميتهم الصنم إلها. وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

ثانيها: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له (أباً) وتسمية الفلاسفة (موجبًا بذاته) أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

ثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود (إنه فقير) وقولهم (إنه استراح بعد أن خلق خلقه) وقولهم (يد الله مغلولة) وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

رابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول الجهمية ومن تبعهم (إن أسمائه تعالى ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معان).

فيطلقون عليه اسم السميع، والبصير، والحي، والرحيم، والمتكلم، والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به.

وهذا من أعظم الإلحاد فيها، عقلا، ولغة، وشرعًا،وفطرة،وهو مقابل لإلحاد المشركين.

خامسها: تشبيه صفاته تعالى بصفات خلقه، فهو إلحاد في مقابلة إلحاد **المعطلة، تعالى الله عن إلحادهم علوًّا كبيرًا.**

وبرأ الله أتباع رسوله ﷺ، وورثة نبيه القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم **يصفوه إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به نبيه ﷺ.**

فأثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات.

فكان إثباتهم بريئًا من التمثيل وتنـــزيههم خليًّا عن التعطيل، والله يهدي من

يشاء إلى سواء السبيل، انتهى ملخصًا من البدع.

فصل في بحث صفات مولانا عز وجل

اعلم أن التوحيد ثلاثة أقسام، توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الصفات. فتوحيد الربوبية: أن لا خالق، ولا رازق، ولا محيي،ولا مميت، ولاموجد، ولا معدم إلا الله تعالى.

وتوحيد الإلهية: إفراده تعالى بالعبادة، والتأله له، والخضوع، والذل، والحب، والافتقار، والتوجيه إليه تعالى.

وتوحيد الصفات: أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به نبيه ﷺ، نفيًا وإثباتًا، فيثبت ما أثبت لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه.

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها، إثبات ما أثبت من الصفات، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه، ما نفاه عن نفسه، مع ما أثبته من الصفات، من غير إلحاد في الأسماء، ولا في الآيات.

والله سبحانه بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل.

فالإثبات المفصل من أسمائه وصفاته، ما أنـــزله من محكم آياته كقوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾ (الإخلاص: ١١٢) السورة ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: ٨٤) ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ (الروم: ٥٤) ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ٤) ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (يونس: ١٠٧) ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٩).

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ (الحديد: ٤) وقوله تعالى: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ (المائدة: ١١٩) ﴿ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ (محمد: ٢٨) ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ

وَلَعَنَهُۥ ﴾ (النساء: ٩٣) ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ (النساء: ١٦٤) ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ ﴾ (القصص: ٦٢) ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس: ٨٢) ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة في أسماء الرب وصفاته سبحانه وتعالى، فإن ذلك، من إثبات ذاته وصفاته، على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته ينفي التمثيل، ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

بخلاف من حاد وزاغ عن سبيلهم من الكفار والمشركين، ومن ضاهى هؤلاء من الصابئة، والمتفلسفة، والقرامطة، والجهمية، والباطنية، والملحدين[1].

---

(١) الصابئة في تعريف الشهرستاني: أنها فرقة كانت في زمان إبراهيم الخليل عليه السلام، كانت تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره، وأحكامه إلى (متوسط) لكن ذلك (المتوسط) يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيًا، وذلك لزكاء الروحانيات، وطهارتها، وقربها من رب الأرباب، والجسماني بشر مثلنا، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا في المادة والصورة، قالوا: ﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٤).

الملل والنحل ج١ ص ٢١٠ تخريج محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، شوال ١٣٧٥هـ -مايو ١٩٥٦م.

القرامطة: هم الشيعة الإسماعيلية، امتازت عن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر. وأشهر ألقابهم: الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب، لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنـزيل تأويلا. ولهم ألقاب كثيرة -سوى هذه- على لسان قوم: فبالعراق يسمون: الباطنية، والقرامطة، والمزدكية.

وبخراسان: التعليمية، والملحدة. ص ١٧٢ الملل والنحل ج ١.

الجهمية: أصحاب (جهم بن صفوان) وهو من (الجبرية الخالصة).. وافق المعتزلة في نفس الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء.

ومنها قوله: لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه؛ لأن ذلك يقتضي تشبيهًا، فنفي كونه حيًا، عالمًا، وأثبت كونه قادرًا، فاعلاً، خالقًا؛ لأنه لا يوصف بشيء من خلقه، بالقدرة، والفعل والخلق.

ومنها قوله: إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أفعاله: لا قدرة له ولا إرادة، ولا اختيار.

=

ولما كانت أسماؤه الحسنى يقول بإثباتها أهل السنة، وكذا المعتزلة على ما مر، قدم البحث عليها.

ولما كانت صفاته تعالى، منها ما اتفق عليه كالصفات السبع، ومنها ما اختلف فيه كصفات فعله تعالى، ورحمته، وغضبه، ونحوها، بدأ بما اتفق عليه منها، وهي السبع صفات، صفات الثبوتية.

لـــه الحـــياة والكلام والبصر   سمـــع إرادة وعلـــم واقـــتدر

قال العلماء: حياة الباري عز وجل مما اتفق عليه العقلاء.

واتفق أئمة السلف على أن كلام الله منـــزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

قال شيخ الإسلام: ومعنى قول السلف (وإليه يعود) ما جاء في الآثار (إن القرآن يسرى به، حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في القلوب منه آية).

وما جاءت به الآثار كالحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند، وكتبه للمتوكل في رسالته التي أرسل بها إليها، عن النبي ﷺ أنه قال: "**ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه**» يعني القرآن، وفي لفظ «**بأحب إليه مما خرج منه**» وقول ابن عباس رضي الله عنهما لما سمع قائلاً يقول لميت لما وضع في لحده: اللهم رب القرآن اغفر له، فالتفت إليه ابن عباس فقال: مه، القرآن كلام الله ليس بمربوب، منه بدأ وإليه يعود.

(و) يجب له سبحانه وتعالى (البصر) وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يتعلق

=

ومنها قوله: إن حركات أهل الخلدين تنقطع، والجنة والنار تفنيان.

ومنها قوله: من أتى (بالمعرفة) ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده؛ لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن، قال: والإيمان لا يتبعض أي لا ينقسم إلى: عقد، وقول، وعمل، قال: ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد.

وقد علق الشهرستاني على عقائده الباطلة بقوله: (وكان السلف كلهم من أشد الرادين عليه، ونسبته إلى التعطيل المحض، وهو أيضًا موافق (للمعتزلة) في نفس الرؤية وإثبات خلق الكلام، وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع. ص ٨١ ج ١ الملل والنحل.

بالمبصرات، فيدرك بها إدراكًا تامًا، لا على سبيل التخيل والوهم ولا عن طريق تأثر حاسة.

والسمع صفة قديمة تتعلق بالمسموعات وإثبات هاتين الصفتين -أعني السمع والبصر- للدلائل السمعية.

وهما صفتان زائدتان على الذات، عند أهل السنة، كسائر الصفات لظواهر الآيات والأحاديث، وليسا راجعين إلى العلم بالمسموعات والمبصرات خلافًا للفلاسفة ومن وافقهم.

فظواهر الكتاب والسنة تدل على المغايرة بين العلم والسمع والبصر، ففي البخاري في باب (وكان الله سميعًا بصيرًا) عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات.

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا) فقال: «**أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم، ولا غائبًا إنما تدعون سيمعًا بصيرًا قريبًا**» الحديث.

وقال الإمام الحافظ البيهقي في كتابه الأسماء والصفات: (السميع) من له سمع يدرك به المسموعات، و(البصير) من له بعد يدرك به المرئيات، وكل منهما في حق الباري، صفة قائمة بذاته تعالى. وقد أفادت الآيات والأحاديث، الرد على من زعم أنه (سميع بصير) بمعنى عليم.

تنبيه

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من علماء الكلام أدلة عقلية على إثبات صفة العلم لله تعالى.

منها: إيجاده سبحانه وتعالى الأشياء لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا الدليل مشهود عند نظار المسلمين، أولهم وآخرهم، والقرآن قد دل عليه كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤) ودليل ثبوت العلم لله تعالى من الكتاب والسنة كثير جدًا

كقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ (الأنعام: ٧٣) ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ (النساء: ١٦٦) ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (فصلت: ٤٧) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ (غافر: ١٩) وما لا يحصى من الآيات إلا بكلفة.

فصل

في ذكر الصفات التي يثبتها لله تعالى أئمة السلف وعلماء الأثر دون غيرهم من علماء الخلف وأهل الكلام، فضلا عن فرق أهل الزيغ، وأساطين الفلاسفة وأهل الإلحاد.

والموضوع الرئيسي لهذا الفصل شرح بيت الشعر الآتي:

سبحانه قد استوى كما ورد من غير كيف قد تعالى أن يحد

(سبحانه) وإنما صدر بالتسبيح، إشارة إلى تنـــزيهه تعالى عن قول المعطلة، واعتقاد الممثلة.

(قد استوى) على عرشه من فوق سبع سماواته، استواء يليق بذاته (كما ورد) في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنصوص السلفية، مما لا يحصى ويتعذر أن يستقصى.

فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسول الله من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعين لهم بإحسان، ثم كلام سائر أئمة الدين ممن تلوى على كلامهم الخناصر، ولا ينازع فيه إلا كل معاند ومكابر، بأن الله تعالى مستو على عرشه، بائن من خلقه.

قال شيخ الإسلام وتلميذه المحقق في (الجيوش الإسلامية): هذا كتاب الله، وذكر مثل ما ذكرنا، وقال في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (السجدة: ٤) إلى قوله: ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الشعراء: ٢١٧) تأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلة والمشركين.

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (هود: ٧) يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم، وإنه لم يزل، وإن الله تعالى لم يخلقه بقدرته ومشيئته.

بل من أثبت منهم وجود الرب، جعله لازمًا لذاته، أزلاً وأبدًا، كما يقوله ابن سينا، والنصير الطوسي، وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين، لما اتفقت عليه الرسل، والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ يتضمن إبطال قول المعطلة الجهمية، الذين يقولون: ليس على العرش سوى العدم، وإن الله ليس مستويًا على عرشه، ولاترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح إليه، ولا عرج برسول الله ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينـــزل من عنده جبريل بوحي الله.. إلخ كلامه رحمه الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ (الأعراف: ٥٤).

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ (يونس: ٣)، وقوله: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ (طه : ٤ – ٥) وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝ ﴾ (الفرقان: ٥٩) وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ (الحديد: ٤).

فذكر عموم علمه، وعموم قدرته، وعموم إحاطته، وعموم رؤيته.

وأما الأحاديث، فمنها قصة المعراج فهي متواترة وتجاوز النبي ﷺ السموات، سماء سماء، حتى انتهى إلى ربه، فقر به وأدناه، وفرض عليه خمسين صلاة، فلم يزل يتردد بين موسى عليه السلام وبين الله تعالى ينـــزل من عند ربه إلى موسى فيسأله: كم

فرض ربك عليك؟ فيخبره، فيقول: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عن أمتك، يصعد إلى ربه فيسأله التخفيف.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« **لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي**».

وفي لفظ: "**كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي**». **وفي لفظ (فهو مكتوب عنده فوق العرش).**

وذكر الإمام البخاري في (كتاب التوحيد) من صحيحه، حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه حديث الإسراء، وفيه (ثم علا به (يعني جبريل) فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاوز سدرة المنتهى، ودنا من الجبار رب العزة، فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه فيما أوحى، خمسين صلاة كل يوم وليلة.

ثم هبط حتى بلغ موسى ﷺ فاحتبسه موسى ﷺ، فقال: يا محمد،ماذا عهد إليك ربك؟قال: عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة.قال: إن أمتك لا تستطيع فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم. فالتفت النبي ﷺ فعلا به الجبار تبارك وتعالى) الحديث.

وقال ﷺ في حكومة سعد بن معاذ في بني قريظة:

«لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة» وفي لفظ «من فوق سبع سموات».

وأصل القصة في الصحيحين وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: لطمت جارية لي، فأخبرت رسول الله ﷺ، فعظم ذلك علي، فقلت يا رسول الله: أفلا أعتقها، قال: «**بل ائتني بها**»، قال: فجئت بها رسول الله ﷺ فقال لها: (**أين الله؟**) فقالت: في السماء قال: «**فمن أنا؟**» قالت: أنت رسول الله، قال: «**إنها مؤمنة**» وفي لفظ (**أعتقها فإنها مؤمنة**).

قال الحافظ الذهبي في كتابه (**العرش**) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وغير

واحد من الأئمة في تصانيفهم يدونونه كما جاء، وقال في أول الحديث من الأحاديث المتواترة الواردة في العلو.

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: «**زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات**».

وقال ﷺ في حديث الأوعال: «**والعرش فوق ذلك،والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه**» رواه الإمام أحمد في المسند، وابن خزيمة في كتاب التوحيد وقول عبد الله بن رواحة الذي أنشده للنبي ﷺ:

شـــهدت بـــأن وعـــد الله حق ... وأن الـــنار مـــأوى الكافـــرين

وأن العـــرش فوق الماء طاف ... وفـــوق العـــرش رب العالمينا

وقد جاء في الكتاب والسنة ما يتعذر، أو يتعسر إحصاؤه.

فتارة يخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، كما مر، وقد ذكر الله استواءه على العرش في سبع مواضع من كتابه.

وتارة يخبر بعروج الأشياء وصعودها وارتفاعها إليه.

وتارة يخبر بنـــزولها من عنده، وتارة يخبر بأنه العلي الأعلى كقوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ﴾ (الأعلى: ١) ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

قال شيخ الإسلام: وأما الأحاديث، والآثار عن الصحابة والتابعين، فلا يحصيها إلا الله.

ولا يخلو إما أن يكون ما اشتركت فيه هذه النصوص، من إثبات علو الله تعالى على خلقه، واستوائه على عرشه هو الحق، أو الحق نقيضه، إذ الحق لا يخرج عن النقيضين.

وإما أن يكون هو -جل شأنه- نفسه فوق الخلق، أو لا يكون فوق الخلق، كما يقول الجهمية الذين يقولون: هو سبحانه، لا فوقهم، ولا فيهم، ولا داخل العالم، ولا خارجه، ولا مباين، ولا محايب.

وتارة يقولون: (هو بذاته في كل مكان).

وفي كلا المقالتين يدفعون أن يكون هو نفسه فوق.

وقد جمع علماء الحديث من المنقول عن السلف في الإثبات ما لا يحصى عدده إلا رب السموات.

ولم يقدر أحد أن يأتي عنهم في النفي بجزء واحد إلا أن يكون من الأكاذيب المختلفة التي ينقلها من هو أبعد الناس عن معرفة كلامهم.

قلت: وقد أكثر العلماء من التصنيف وأجلبوا بخيلهم ورجالهم من التآليف في ثبوت العلو والاستواء، ونبهوا على ذلك بالآيات والحديث وما جوى، فمنهم الراوي الأخبار بالأسانيد، ومنهم الحاذف لها، وأتى بكل لفظ مفيد، ومنهم المطول المسهب ومنهم المختصر، والمتوسط، والمهذب.فمن ذلك مسألة العلو لشيخ الإسلام ابن تيمية والعلو للإمام الموفق صاحب التصانيف السنية والجيوش الإسلامية للإمام المحقق (ابن قيم الجوزية) و (كتاب العرش) للحافظ شمس الدين الذهبي صاحب الأنفاس العلية، وما لا أحصي عددهم إلا بكلفة، والله تعالى الموفق.

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه (أقاويل النفاة في تأويل الأسماء والصفات): ومما احتج به أهل الإثبات بأنه الذي طبع الله عليه أهل الفطرة العقلية السليمة من الأولين والآخرين الذين يقولون: إنه فوق العالم، إذ العلم بذلك فطري عقلي ضروري، لا يتوقف على سمع، قالوا: ولم يقل قائل يا ألله إلا وجد من قلبه ضرورة، يطلب العلو بحيث لا يمكن رفع هذه الضرورة عن القلوب، ولا يلتفت الداعي يمنه ولا يسره.وأما العلم بأنه تعالى استوى على العرش بعد خلقه السموات والأرض في ستة أيام، فهذا سمعي علم بالوحي على الأنبياء فأخبروا عليهم الصلاة والسلام أممهم بذلك.

قال سيدنا الشيخ الكبير الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي -قدس الله سره- في كتابه (الغنية) في الفقه، قال: وهو تعالى بجهة العلو مستو على العرش محتو على الملك محيط علمه بالأشياء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر: ١٠) ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة:٥] ولا يجوز

وصفه بأنه في كل مكان بل يقال: إنه في السماء على العرش استوى كما قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ثم قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش، ثم قال: وكونه مستو على العرش مذكور في كل كتاب أنـزله على كل نبي أرسله، بلا كيف، هذا بنص كلامه - قدس الله سره - في (الغنية). انتهى.

.. قال الإمام القرطبي وابن أبي زيد والقاضي عبد الوهاب من المالكية وجماعة من شيوخ الحديث والفقه وابن عبد البر والقاضي وأبو بكر بن العربي وابن فورك وغيرهم، ممن لا يحصى عددهم: إنه سبحانه مستو على العرش بذاته وأطلقوا في بعض الأماكن (فوق عرشه).

قال القاضي أبو بكر: وهو الصحيح الذي أقول به من غير تحديد ولا تمكن في مكان ولا مماسة.

قال شيخ الإسلام: استوى على عرشه على الوجه الذي يستحقه سبحانه وتعالى، من الصفات اللائقة به.

قال: فإن قال قائل: لو كان الله تعالى فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش، أو أصغر، أومساويًا وذلك كله محال، ونحو ذلك من الكلام.

والجواب أن يقال: إن هذا لم يفهم من كون الله تعالى على العرش إلا ما ينسب للأجسام فهذا اللازم تابع لهذا المفهوم.

وأما استواء يليق بجلال الله ويختص بعظمته، فلا يلزم شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها كما يلزم سائر الأجسام.

ولما كان أهل الملل مختلفين[1] فمنهم من نفى الصفات من أصلها وأثبت

---

(١) في المطول (ولما كان أهل الملة مختلفة).

يروي الشهرستاني في سبب نشأة الاعتزال فيقول: (دخل واحد على (الحسن البصري) فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم (وعيدية الخوارج) وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة =

الأسماء وهم المعتزلة، ومنهم من نفى الصفات الخبرية والأفعال الاختيارية أن تقوم بذاته تعالى وأثبت السبع الصفات كالأشعرية ومن وافقهم، وكان مذهب السلف وسائر الأئمة وجمهور الأمة إثبات الصفات الذاتية، والأسماء الحسنى، والصفات الخبرية وصفات الأفعال الاختيارية لله تعالى، حثك على الاتباع لسلف الأمة، وحذرك من الابتداع ومخالفة السنة فقال: (فاحذر من النـــزول من ذروة الإيمان وسنام الدين والإيقان، وأوج الرفعة والعرفان، إلى حضيض الابتداع، وقاذورات الاختراع، فإن السلامة كل السلامة في اتباع الرعيل الأول، والسرب الذي عليه المعول لا ما ابتدعته فروخ الجهمية، وانتحلته الفلاسفة.

فـــسائر الـــصفات والأفعـــال	**قديمـــــــة لله ذي الجـــــلال**
لكـــن بـــلا كـــيف ولا تمثيل	**رغمًـــا لأهـــل الزيغ والتعطيل**
فمـــرها كمـــا أتـــت في الذكر	**مـــن غـــير تأويـــل وغير فكر**

(**فسائر الصفات**) الذاتية من الحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعلم والكلام وغيرها، وسائر الصفات الخبرية من الوجه واليدين والقدم والعينين ونحوها وسائر صفات (الأفعال) من الاستواء والنـــزول والإتيان والمجيء والتكوين ونحوها.

(قديمة لله) أي هي صفات قديمة عند سلف الأمة وأئمة الإسلام لله (ذي الجلال) والإكرام ليس منها شيء محدث إلا لكان محلاً للحوادث، وما حل به الحادث فهو حادث، تعالى الله عن ذلك، ولما كان ربما توهم متوهم أن ذلك سلم

=

عندهم لاتضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم (مرجئة الأمة) فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا؟

فتفكر (الحسن) في ذلك، وقبل أن يجيب قال (واصل بن عطاء): أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا، ولا كافرًا مطلقًا، بل هو في منـــزلة بين المنـــزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا (واصل) فسمي هو وأصحابه (المعتزلة)، ص ٥٢ الملل والنحل ج ١ للشهرستاني.

للتشبيه والتمثيل المنفي في محكم النص استدرك ذلك فقال: (لكن) بإسكان النون (بلا كيف ولا تمثيل) وإثبات ذلك والاعتراف به والإقرار والإذعان بموجبه لما دلت عليه النصوص القرآنية، والأحاديث الثابتة النبوية فاعتقدنا ذلك واعتمدناه، متابعة للسلف وارتضيناه و (رغما لـــ) أي الأجل رغم أنف (أهل الزيغ) أي الميل والانحراف عن نهج أهل الحق، يقال: زاغ إذا مال وأزغ غيره إذا أماله (و) رغمًا لأنوف أهل (التعطيل) من الطوائف الضالة، فمذهب السلف حق بين باطلين، وسنة بين بدعتين، فإن من الناس من حمل النصوص على التشبيه والتمثيل فضل وأضل، ومنهم من حملها على التحريف والتعطيل فانحدر وانفصل عن الحق، وأهل الحق أثبتوا النصوص واعتقدوها بلا تكييف، وهم يقولون: (إثبات وجود) لا (إثبات تكييف وتحديد) ولهذا قال فمرها -أي أنها تمر- أي آيات الصفات وأخبارها، ولا تتعرض لمعانيها وأسرارها، بل تفسيرها أن تمرها (كما أتت في الذكر) القرآن والحديث الصحيح عن المعصوم العدناني ﷺ (من غير تأويل) لها (وغير فكر) في معانيها، فإن ذلك ليس في طوق البشر أن يكلفوه: ولا في وسعهم أن يعرفوه، وعلى ذلك مضت أئمة السلف.

وسمع الإمام أحمد شخصًا يروي حديث النـــزول يقول: ينـــزل بغير حركة ولا انتقال ولا تغير حال، فأنكر الإمام أحمد عليه ذلك وقال: قل كما قال رسول الله ﷺ فهو كان أغير على ربه منك، وقال أبو حنيفة ﷺ في كتابه الفقه الأكبر: (ما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال إن يده قدرته ونعمته؛ لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفة بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف).

وقال العلامة ابن الهمام: (إن الإصبع واليد صفة له تعالى لا بمعنى الجارحة على وجه يليق به هو سبحانه والله أعلم).

وقال أبو حامد الغزالي في كتابه إلجام العوام: "اعلم أن الحق الصحيح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف: أعني الصحابة والتابعين رضي الله

عنهم أجمعين» ثم قال: (حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأخبار من عوام الخلق، يجب على سبعة أمور: التقديس، ثم التصديق، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الكف، ثم الإمساك، ثم التسليم لأهل المعرفة.

فالتقديس: تنــزيه الرب عن الجسمية وتوابعها، والتصديق: الإيمان بقوله ﷺ: وأن كل ما ذكر حق، وهو فيما قاله صادق، وأنه حق على الوجه الذي وأراده، والاعتراف بالعجز: أن يقر بأن معرفة مراده ليس على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته، والسكوت: بأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه مخاطرًا بدينه، وأن يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر، وأما الإمساك: فإنه لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيها، والنقصان منها، والجمع والتفريق، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة، وأما الكف: فبأن يكف باطنه عن البحث والتفكر فيه، وأما التسليم: لأهل المعرفة فأن لا يعتقد أن ذلك إن خفي عليه لعجزه، فقد خفي على الرسول ﷺ وعلى الأنبياء أو على الصديقين والأولياء) ا. هـــ

ولما فرغ من ذكر ما يجب له تعالى من الأسماء والصفات الذاتية والإخبارية والفعلية، أخذ في ذكر ما يستحيل في حقه تعالى فقال:

ويـــستحيل الجهل والعجز كما　　　قد استحال الموت حقًا والعمى

فكـــل نقـــص قـــد تعالى الله　　　عـــنه فـــيا بـــشرى لمن والاه

(ويستحيل) في حقه تعالى أضداد الصفات التي اتصف بها الباري جل شأنه، والمستحيل هو كما مر ما لا يتصور في العقل ثبوته، فما يستحيل في حقه تعالى (الجهل) الذي هو ضد العلم (والعجز) الذي هو ضد القدرة (كما) أنه (قد استحال) في حقه تعالى (الموت) الذي هو ضد الحياة حق ذلك (حقًا) فهو مصدر (و) يستحيل في حقه تعالى (العمي) الذي هو ضد البصر، وكذلك الصمم الذي هو ضد السمع، والبكم الذي هو ضد الكلام، والفناء الذي هو ضد البقاء، والعدم الذي هو

ضد الوجود، والفقر الذي هو ضد الغنى، والمماثلة للحوادث المنفي بقوله تعـالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم: ٦٥) ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (النحل: ٧٤) ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ (البقرة: ٢٢) ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾ (الإخلاص: ٣ - ٤) ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ (الفرقان: ٢٠) ونحو ذلك.

والنفي إنما يدل على عدم المنفي، والعدم المحض ليس بشيء أصلاً فضلاً عن أن يكون كمالاً، وإنما يكون كمالاً إذا استلزم أمرًا وجوديًا، فلهذا لم يصف الرب تعالى نفسه بشيء من النفي إلا إذا تضمن ثبوتًا كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فقوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ يتضمن كمال حياته وقيوميته، فإن النوم أخو الموت، ومن تأخذه السنة والنوم لا يكون قيومًا قائمًا بنفسه، مقيمًا لغيره، فإن السنة والنوم يناقض ذلك ثم قال تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾ يتضمن كمال كونه له ما في السموات وما في الأرض ليس له ذلك شريك ولا ظهير، فإن الشافع إذا شفع عند غيره بغير إذنه كان شريكًا له فيمايشفع فيه، وكان متصرفًا فيه إذا جعله مماثلاً بعد أن لم يكن، فكان في نفي هذه الشفاعة قد بين أنه لا شريك له بوجه من الوجوه، والصمد الذي يحتاج إليه كل شيء ولا يحتاج إلى شيء ولا يؤثر فيه غيره.

والحاصل: أن كل ما كان ضدًا لما ذكر من أوصافه، أو نقيضًا أو خلافًا فهو تعالى منـــزه عنه مطلقًا.

ولهذا قال: (فكل نقص) من هذه الأوصاف المذكورة ونحوها (قد تعالى) وتنـــزه (الله عنه)؛ لأن له الكمال المطلق، فكل كمال لا يؤدي إلى نقص فالله أولى به، وكل نقص الله منـــزه عنه (فيا بشرى) نادى البشرى بشارة (لـــ) كل (من) أي شخص من أهل السنة والجماعة قد (والاه) الله أو قد والى هو الله أي اتخذه وليًا معتمدًا عليه، ومفوضًا جميع أموره إليه مع اقتفائه المأثور، واتباعه للرسول ﷺ فكأنه

يقول لنفسه ولسائر أهل السنة، هذا أوان حصول البشرى لكم، أو يا بشرى أقبلي وتعالي فهذا أوانك، وإنما نوه بالبشرى لمن والاه الله تعالى لعظم ذلك وخطره ودخوله في حصن ولايته ولمحل نظره.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد أذنته بالحرب**» الحديث، وقد قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (يونس: ٦٢) إلى قوله ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٢) فالناظم -رحمه الله- تعالى اقتبس من الآية البشارة لأهل الولاية.

وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده عن وهب بن منبه قال: (إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام حين كلمه: اعلم أن من أهان لي وليًّا وأخافه فقد بارزني بالمحاربة وباداني وعرض نفسه ودعاني إليها وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أيظن الذي يحاربني أن يقوم لي، أو يظن الذي يعاجزني أنه يعجزني، أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني؟ وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة فلا أكل نصرتهم إلى غيرهم).

فإذا كان من والى الله تعالى بهذه المثابة من الحفظ والإعزاز والنصرة له من قبل العزيز القهار، وتوعد من عاداه وآذاه بمعاداة القوي الجبار، فله البشارة العظمى والمسرة والمنـــزلة العليا والمبرة.

تنبيه:

قال شيخ الإسلام- قدس الله روحه-: جماع الأمر: إن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام. كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة، قسمان يقولان: تجري على ظاهرها، وقسمان يقولان: هي على خلاف ظواهرها، وقسمان: يسكتان.

فأما الأولان فأحدهما من يجريها على ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، فهؤلاء المشبهة ومذهبهم باطل أنكره السلف، وعليهم توجه الرد بالحق.

الثاني: من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى وعظمته، كما يجري اسم العليم القدير والرب والإله والموجود والذات ونحو ذلك، على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوقين، إما جوهر محدث وإما عرض قائم، فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضا والغضب ونحو ذلك في حق العبد أعراض، والوجه واليدين والعين في حقه أجسام، فإذا كان الله عزوجل موصوفًا عند عامة أهل الإثبات له علمًا وقدرة وكلامًا ومشيئة، ولم تكن في حقه تعالى أعراضًا يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره من السلف.

قال: وأما القسمان اللذان يقولان هي على خلاف ظواهرها، فقسم يتأولونه ويعينون المراد منها، مثل قولهم استوى بمعنى استولى أو بمعنى علو المكانة والقدر، وقسم يقولون: الله أعلم بمراده منها، لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمناه.

قال: وأما القسمان الواقفان، فقسم يقول بجواز أن يكون المراد ظاهرها اللائق بالله تعالى، ويجوز أن لا تكون صفة لله وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم، وقسم يمسكون عن هذا كله، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث. معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات.

قال: فهذه الأقسام الستة لا يمكن الرجل أن يخرج عن قسم منها. قال: والصواب في كثير من الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثانية. انتهى.

الباب الثاني

في الأفعال المخلوقة

- صحة إيمان المقلد في العقائد وعدمه.
- في الأفعال المخلوقة.
- القدر.
- أصحاب الجبر.
- أنواع الهداية.
- الإرادة الكونية والإرادة الدينية.
- الرزق.
- معنى القضاء والقدر عند الخطابي.

فصل

في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد وعدمه وفي جواز عدمه

أورد المؤلف بعض آراء العلماء، منهم الإمام أحمد بقوله «من قلد الخبر رجوت أن يسلم إن شاء تعالى» فأطلق اسم التقليد على من صار إلى الخبر وإن كان حجة بنفسه:

قال علماؤنا وغيرهم: يحرم التقليد في معرفة الله تعالى وفي التوحيد والرسالة، وكذا في أركان الإسلام الخمس ونحوها مما تواتر واشتهر عند الإمام أحمد ﷺ والأكثر، وذكره أبو الخطاب عن عامة العلماء.

قال في شرح التحرير: واستدلوا على التحريم التقليد بأمره سبحانه بالتدبر والتفكر والنظر، وفي صحيح ابن حبان لما نزل في آل عمران ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ١٦٤) الآيات. قال رسول الله ﷺ: «**ويل لمن قراهن ولم يتدبرهن ويل له ويل له**».

والإجماع على وجوب معرفة الله تعالى، ولا تحصل بتقليد ولقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد: ١٩) فألزم الشارع بالعلم، ويلزمنا نحن أيضًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٨) فتعين طالب اليقين في الوحدانية، ويقاس عليها غيرها.

والتقليد لا يفيد إلا الظن، ولهذا قال معللا للمنع عنه بقوله (لأنه) أي الشأن والأمر والقصة «لا يكتفى» في أصول الدين ومعرفة الله تعالى (بالظن) الذي هو ترجيح أحد الطرفين على الآخر والراجح هو الظن، والمرجوح هو الوهم فلا يكتفي به في أصول الدين (لذي) أي لصاحب (الحجى) العقل والفطنة (في قول أهل الفن) من الأئمة وعلماء المنقول والمعقول.

قال في مختصر شرح التحرير: وأجازه يعني التقليد في أصول الدين جمع. قال

العلامة ابن مفلح: وأجازه بعض الشافعية لإجماع السلف على قبول الشهادتين من غير أن يقال لقائلها هل نظرت؟ وسمعه الإمام ابن عقيل عن أبي القاسم بن التبان المعتزلي قال: وإنه يكتفي بطريق فاسد. وقال هذا المعتزلي: إذا عرف الله وصدق رسوله ﷺ وسكن قلبه إلى ذلك واطمأن به فلا علينا من الطريق تقليدًا كان أو نظرًا أو استدلالاً.

في الأفعال المخلوقة

قال شيخ الإسلام: قد أخبرت الكتب الإلهية أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، فتلك الأيام ليست مقدرة بحركة الشمس والقمر، فإنه فيها خلق الشمس والقمر والأفلاك، وسواء كانت بقدر هذه الأيام، أو كان كل يوم يقدر بألف سنة فعلى القولين ليس مقدار هذه حركات ما خلق فيها.

والحاصل أن الكتب الإلهية والسنة النبوية وإجماع المسلمين، على أن الله خالق كل شيء فإن كل ما سوى الله مخلوق.

قال شيخ الإسلام: وليس بين أهل الملل خلاف في أن الملائكة جميعهم مخلوقون، وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم**» .

(وربنا) تبارك وتعالى (يخلق) ما شاء أن يخلقه من سائر مخلوقاته (باختيار) منه فمذهب السلف وأئمة الأمة، أن الله تعالى لم يزل فاعلا لما يشاء وأنه تقوم بذاته الأمور الاختيارية، وأنه تعالى لم يزل متصفًا بصفاته الذاتية والفعلية، فلم يحدث اسمًا من أسمائه، ولا صفة من صفاته، فيخلق سبحانه المخلوقات، ويحدث الحوادث بعد أن لم تكن، سواء كان ذلك على مثال سابق أولا.

والإبداع: إحداث الشيء بعد أن لم يكن على غير مثال سابق (من غير حاجة) منه تعالى إليه، أي يخلق الخلق لا لحاجة إليه (ولا اضطرار) عليه فالحاجة المصلحة والمنفعة، والاضطرار الإلجاء والإحواج والإلزام والإكراه، فلا حاجة باعثة له سبحانه على خلقه للخلق، ولا مكره له عليه بل خلق المخلوقات، وأمر

بالمأمورات، لمحض المشيئة وصرف الإرادة.

(لكنه) تعالى وتقدس، هذا استدراك من مفهوم قوة إنه يخلق بالاختيار أي لا بالذات، خلافًا للمعتزلة ومن وافقهم، من غير حاجة إليه، ولا اضطرار عليه، غير أنه جل وعلا (لا يخلق الخلق سدى) أي هملا بلا أمر ولا نهي ولا حكمة، ومعنى السدى المهمل، وإبل سدى إذا كانت ترعى حيث شاءت بلا داع (كما أتى في النص) القرآن والسنة النبوية والآثار مما هو كثير جدًا، إن الله تبارك وتعالى لا يفعل إلا لحكمة وعلم، وهو العليم الحكيم، فما خلق شيئًا ولا قضاه ولا شرعه، إلا لحكمة بالغة، وإن تقاصرت عنها عقول البشر (فاتبع الهدى) باقتفاء المأثور واتباع السلف الصالح، ولا تجحد حكمته، كما لا تجحد قدرته، فهو الحكيم القدير.

قال شيخ الإسلام -قدس الله روحه: ونشأ من هذا الاختلاف نزاع بين المعتزلة والكرامية، ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث وغيرهم رضي الله عنهم، وحكوا ذلك عن الإمام أبي حنيفة نفسه ﷺ، ونفي ذلك الأشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم.

والحاصل: أن فعل الله تعالى وتقدس،وأمره لا يكون لعلة في قول مرجوح، اختاره كثير من علمائنا وبعض المالكية والشافعية، وقاله الظاهرية والأشعرية والجهمية.

والقول الثاني: أنهما لعلة وحكمة اختاره الطوفي، وهو مختار شيخ الإسلام وابن القيم، وابن قاضي الجبل، وحكاه عن إجماع السلف وهو مذهب الشيعة والمعتزلة، لكن المعتزلة تقول بوجوب الصلاح، ولهم في الأصلح قولان، كما يأتي في النظم، والمخالفون لهم ما يقولون بالتعليل لا على منهج المعتزلة.

تنبيهات

الأول: أول من تكلم في القدر (معبد الجهني) وكان أولا يجلس إلى الحسن البصري.. وقال شيخ الإسلام: أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له سيبويه من أبناء المجوس، وتلقاه عنه معبد الجهني.

ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر، فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقي من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ووائلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنهم. وكان أكثره بالبصرة والشام وقليل منه بالحجاز.

قال وكيع: «القدرية يقولون الأمر مستقبل، وإن الله لم يقدر الكتابة والأعمال، والمرجئة يقولون: (والقول يجزي عن العلم) والجهمية يقولون: (المعرفة تجزي عن القول والعمل) قال وكيع: (هو كله كفر).

الثاني: القدرية فرقتان:

الفرقة الأولى تنكر ما ذكرنا من سبق العلم بالأشياء قبل وجودها، وتزعم أن الله لم يقدر الأمور أزلا، ولم يتقدم علمه بها، وإنما يأتنفها علمًا حال وقوعها، وكانوا يقولون: إن الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار، حتى فعلوا ذلك فعلمه بعد ما فعلوه. ولهذا قالوا الأمر أنف أي مستأنف.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن الله تعالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه: (كن كتابًا فكان كتابًا) ثم أنزل تصديق ذلك في هذه الآية أي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠ ﴾ (الحج: ٧٠) وفي الآية الأخرى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ ﴾ (الحديد: ٢٢).

قال العلماء: والمنكرون لهذا انقرضوا وهم الذين كفرهم الأئمة وغيرهم من السلف.

الفرقة الثانية: من فرقتي القدرية: المقرون بالعلم:

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: (القدرية اليوم متفقون على أن الله عالم بأفعال العباد مقدورة لهم واقعة منم على جهة الاستقلال، وهو مع كونه مذهبًا باطلاً أخف من المذهب الأول).

وأما ذم القدرية فقد أخرج أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة**» ورواه الترمذي وحسنه ورواه الطبراني في الكبير وابن حبان في صحيحه والحاكم.وقال صحيح الإسناد عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ستة لعنتهم ولعنهم كل نبي مجاب، الزائد في كتاب الله عز وجل، والمكذب بقدر الله، والمتسلط على أمتي بالجبروت، ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله**»».

قال الخطابي: (إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين: النور والكلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله تعالى خالق الأمرين معًا، وكذا قال ابن الأثير في جامع الأصول.

وأما المفرطون (فالجبرية) وهم الذين يزعمون أنه لا فعل للعبد أصلاً وأن حركاته بمنزلة حركات الجمادات لا قدرة له عليها ولا قصد ولا اختيار.

قال شيخ الإسلام: ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى، بل هؤلاء قولهم متناقض لا يمكن لأحد منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاشر عليه اثنان، فإن القدر إن كان حجة فهو حجة لكل أحد، وإلا فليس هو حجة لأحد دون أحد، فإذا ظلم الإنسان ظالم أو شتمه شاتم، أو أخذ ماله أو أفسد عياله فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته أبطل الاحتجاج بالقدر.

وقال: ومن يدعي أن العارف إذا شهد الإرادة سقط عنه الأمر كان هذا من الكفر الذي لا يرضاه أحد، بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع.

قال تلميذه المحقق في (شرح منازل السائرين): مشهد أصحاب الجبر وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم واختيارهم بل لا يشهدون أنها أفعالهم ألبتة، ويقولون إن أحدهم غير فاعل في الحقيقة، ولا قادر وإن الفاعل فيه غيره، والمحرك له سواه، وإنه آلة محضة وحركاته بمنزلة هبوب الرياح،

وحركات الأشجار، وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه وقد يغلون في ذلك حتى يروا أفعالهم كلها طاعة، وموافقة المشيئة طاعة كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم أنهم جعلوا مشيئة الله لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه بها[1] وهؤلاء شر من القدرية النفاة وأشد عداوة لله ومناقضة لكتبه ورسله ودينه، حتى إن من هؤلاء مَنْ يعتذر عن إبليس لعنه الله، ويتوجع له ويقيم عذره بجهده وينسب ربه إلى ظلمه بلسان الحال والمقال ويقول: ما ذنبه وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه، وقد وافق حكمه ومشيئته فيه إرادته منه، ثم كيف يمكنه السجود وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه وهل كان في ترك سجوده لغيرك إلا محسنا.

إذا كـــان المحـــب قلـــيل حظ فمـــا حـــسناته إلا ذنـــوب

قال: وهؤلاء أعداء الله حقًا وأولياء إبليس وأحبابه وإخوانه، وإذا ناح منهم نائح على إبليس رأيت من البكاء والحنين أمرًا عجيبًا، ورأيت من تظلم الأقدار واتهام الجبار ما يبدو على فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم،وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه.

قال: فهؤلاء الذين قال فيهم شيخ الإسلام في تائيته:

وتدعي خصوم الله يوم معادهم إلى الـــنار طـــرا فرقة القدرية

يعني الجبرية.

وتقدم أن شيخ الإسلام قال: إن بدعة القدرية النفاة كانت في أواخر عصر الصحابة رضي الله عنهم، وأما بدعة هؤلاء المحتجين بالقدر فلم يعرف لها إمام ولم تعرف به طائفة من طوائف المسلمين معروفة. قال: وإنما كثر ذلك في المتأخرين وسموا هذا حقيقة، وجعلوا الحقيقة تعارض الشريعة[2]، ولم يميزوا بين الحقيقة

---

(١) من قول الله عنهم ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ (الأنعام: ١٤٨) وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ (يس: ٤٧).

(٢) يقصد بعض الوصفية الذين شذوا عن منهج أهل السنة، ويقرب الشيخ الشعراوي–رحمه الله =

الشرعية التي تتضمن تحقيق أحوال القلوب كالإخلاص والصبر، وبين الحقيقة الكونية القدرية التي نؤمن بها ولا نحتج بها على المعاصي، وفيهم من يقول: إن العارف إذا أفنى في شهود توحيد الربوبية لم يستحسن حسنة ولم يستقبح سيئة، ويقول بعضهم: من شهد الإرادة سقط عنه الأمر والنهي، ويقول بعضهم: إن الخضر عليه السلام إنما سقط عنه التكليف؛ لأنه شهد الإرادة، إلى غير ذلك من كلامهم.

والحاصل أن هذه المقالة من أشنع المقالات وأفظع البدع المحدثات، والمحتج بقدر الله على معاصي الله زنديق وخارج عن سواء السبيل، وعادم التحقيق ومارق من الدين ومباين التوفيق.

=

تعالى- عقيدة خلق أفعال العباد بقوله: "لنفرض أن واحدًا جالس، ويريد أن يقوم، فإذا خطر في باله أن يقوم، فأنا أسأل سؤالا واحدًا: ما هي العضلات أو الجوارح أو الأجزاء التي يجب أن تتحرك لتتم عملية القيام؟

أريد أن أرفع يدي، فما هي العضلات والأعصاب التي تجعلني أقوم بهذه العملية؟

لا أعرف-إنما بمجرد أن أريد القيام أقوم أو أرفع يدي أرفعها.

إذن فالمسألة يجب أن ننظر إليها نظرة أدق، فالمجازفة في قولهم: إن الإنسان خلق فعل نفسه..

لأنك أنت لم تعمل شيئا أبداً: بدليل أن الله تعالى يستطيع أن يسلب منك العقل فلا يخطط، وتريد أن تفعل الفعل فيصيبه بتعطل أو شلل مثلا وبعد ذلك يأتي إلى الذي سنفعل فلا نفعل. إذن هناك عناصر لخلق الفعل ليست منا: فماذا لك أنت؟ ليس لك إلا منطقة الفكر فقط، وهي أن تقارن بين البديلات، ثم توجه الطاقة، وترجح فعلا على فعل.

وترجيح فعل على فعل لا يقال فيه إنك فعلت، وإنما رجحت توجيه الطاقة إلى فعل دون غيره.. إذن أنت لم تخلق الفعل، وإنما وجهت.

إذن الإنسان في التكليف ليس له خلق فعل نفسه في الطاعة أو المعصية، وإنما وُجِّه الطاقة المخلوقة لله لأن تفعل، فاستجاب له، وهي لا تعصى في الأولى ولا تعصى في الثانية، إذن فأنت موجه فقط، وثوابك وعقابك على التوجيه لا على الفعل.

ومن هنا قال أهل السنة بالكسب، ولكن القول بالكسب فيه شيء.. ما معنى الكسب؟ الكسب أن تكسب شيئاً. الكسب فعل من الأفعال. إذن فالدقة ألا تقول كسب ولا خلق، وإنما هو توجيه الطاقة إلى الفعل، وثوابي وعقابي على هذا التوجيه. ص ٢٧، ٢٨ من كتاب عقيدة المسلم، جمع وإعداد: عبد القادر أحمد عطا مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة سنة ١٩٨٤م.

والباري جل شأنه أرسل الرسل قاطبة بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وفي الاحتجاج على المعاصي بالقدر وانعكاس ما جاءت به الرسل من تعظيم النهي والأمر، وبالله التوفيق.

وأما المتوسطون فهم أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا تفريط القدرية النفاة، ولم يفرطوا إفراط الجبرية المحتجين بالقدر على معاصي الله، وهؤلاء على مذهبين: مذهب الأشعري ومن وافقه من الخلف، ومذهب سلف الأمة وأئمة السنة، فمذهب أهل السنة كافة أن جميع أنواع الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقعة بقضاء الله وقدره لا خالق سواه. فأفعال العباد مخلوقة لله تعالى خيرها وشرها حسنها وقبيحها، والعبد غير مجبور على أفعاله بل هو قادر عليها، هذا القدر باتفاق أهل السنة[1].

ثم إن الأشعري ومن وافقه منهم أثبت للعبد كسبًا ومعناه أنه قادر على فعله

(١) ويشرح الشيخ الشعراوي –رحمه الله– هذه القضية بشيء من التفصيل ليزيل أي التباس في الأذهان فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١).

صحيح هو الذي شاء ذلك، ولكن لم يشأه مشيئة شرعية،وإنما شاءه مشيئة كونية، بأن يخلقه صالحًا لهذا وصالحًا لهذا، بدليل أنه قال: من يعصيني فليتق مني توبة، ويتوب إلي ويرجع، إذن لو أراد أن يخلقه على شكل واحد لما عز ذلك عليه.. فالذي كفر لم يكفر قهرًا عن الله؛ لأن الله أعطاه الصلاحية لأن يؤمن ولأن يكفر، ولأن يطيع ولأن يعصي، فإذا كان الله صمم الخلق على شكلين وعلى اتجاهين، أفيكون اتجاه كل شكل إلى أي اتجاه من الاتجاهين قهرًا عن الله؟..وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ١٢٩) متفق تمامًا مع صفة العدل، ولا تعارض مطلقًا.. وما ظاهره التعارض يجب أن نعمل فيه عقولنا لنصل إلى الجامع والالتقاء. تلك آية مجملة، والمجمل دائمًا يحمل على المفصل، فليس معنى الآية أن يقول الله لهؤلاء أنتم مهديون، ولا لهؤلاء أنتم ضالون، هكذا بلا مقياس ولا ميزان، بل إذا أردنا أن نفهم يجب علينا أن نتبع الآيات المفيدة منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٠) يعني سبق منهم ظلم فلم يتعرضوا لهداية الله. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (النحل: ١٠٧) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٣).

ص ٢٢/ ٢١ من كتاب (عقيدة المسلم) جمع وإعداد عبد القادر أحمد عطا، مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة سنة ١٩٨٤م.

وإن كانت قدرته لا تأثير لها في ذلك كما مر.

قال شيخ الإسلام -قدس الله روحه: هذا قول الأشعري ومن وافقه من المثبتة للقدر من الفقهاء وطوائف من أهل السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد حيث لا يثبتون في المخلوقات قوى ولا طبائع ويقولون إن الله فعل عندها لا بها، ويقولون إن قدرة العبد لا تأثير لها في العقل.

ويقول الأشعري: إن الله فاعل فعل العبد وأن عمل العبد ليس فعلا للعبد بل كسبًا له. قال شيخ الإسلام: وهذا قول من ينكر الأسباب والقوى التي في الأجسام وينكر تأثير القدرة التي للعبد التي يكون بها الفعل.

ويقول: إن الفعل كسب للعبد لكن يقول لا أثر لقدرة العبد في إيجاد المقدور وهو مقام دقيق، حتى قال بعضهم: إن هذا الكسب الذي أثبته الأشعري غير معقول، قال: حتى قال جمهور العقلاء ثلاثة أشياء لا حقيقة لها[1]: طفرة النظام وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري، وذلك أنه يلزم ألا يكون فرق بين القادر والعاجز، إذ مجرد الاقتران الاختصاص له بالقدرة فإن فعل العبد يقارن حياته وعلمه وإرادته وغير ذلك من صفاته، فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلا مجرد الاقتران، فلا فرق بين القدرة وغيرها.

---

(١) طفرة النظام تعني قوله بأن الجسم يصير من المكان الأول إلى الثالث أو العاشر من غير ضرورة إلى وسط. ص ١٩٨ الفرق بين الفرق للبغدادي.

وأحوال أبي هاشم الجبائي أي عند حديثه عن صفات (الباري) تعالى فيقول: هو (عالم) لذاته بمعنى أنه (ذو حالة) هي صفات معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً، وإنما تعلم (الصفة) على (الذات) لا بانفرادها، فأثبت (أحوالا) هي صفات لا موجودة، لا معدومة، ولا معلومة ولا مجهولة، أي: هي على حبالها لا تعرف كذلك بل مع (الذات) ص ٧٥ج ١ -الملل والنحل للشهرستاني.

وكسب الأشعري في تعريف الشهرستاني (أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقيب القدرة الحادثة، أو تحتها، أو معها: الفعل الحاصل، إذا أراد العبد وتجرد له، ويسمى هذا الفعل كسبا، فيكون خلقاً من الله تعالى: إبداعاً وإحداثاً وكسباً من العبد .. حصولا تحت قدرته.. ولا تأثير للقدرة الحادثة في الأحداث..) ص ٨٨/٨٩ج ١ الملل والنحل للشهرستاني.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وجمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون: إن العبد فاعل لفعله حقيقة، وإن له قدرة حقيقة واستطاعة حقيقة ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينـــزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء، ولا يقولون القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون بأن لها تأثيراً لفظاً ومعنى، لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب في مسبباتها والله تعالى خلق السبب والمسبب. ومع أنه خالق السبب فلابد للسبب من سبب آخر يشاركه، ولابد به من معارض يمانعه فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له بأن يخلق الله السبب الآخر، ويزيل الموانع.

وقال شيخ الإسلام في موضع آخر: الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد أنها بمعنى قائمة به وحاصلة بمشيئته وقدرته وهو المتصف بها، والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه وهي من الله بمعنى أنه خلقها قائمة بالعبد وجعلها **عملاً** له وكسباً كما يخلق المسببات بأسبابها فهي من الله مخلوقة له، ومن العبد صفة قائمة واقعة بقدرته وكسبه، كما إذا قلنا هذه الثمرة من الشجرة وهذا الزرع من الأرض، بمعنى أنه حدث منها ومن الله بمعنى أنه خلقه منها لم يكن بينهما تناقض. قال: فالحوادث تضاف إلى خالقها باعتبار وإلى أسبابها باعتبار كما قال تعالى: ﴿ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ (القصص: ١٥) وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنسَـٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ (الكهف: ٦٣) مع قوله: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ٧٨) وأخبر أن العباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويتقون ويصدقون ويكذبون.

قال: والحاصل أن مذهب السلف ومحققي أهل السنة أن الله تعالى خلق قدرة العبد وإرادته وفعله، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله والله سبحانه جعله فاعلاً له محدثاً له قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الإنسان: ٣٠) فأثبت مشيئة العبد وأخبر أنها لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى وهذا صريح قول أهل السنة في

إثبات مشيئة العبد وأنها لا تكون إلا بمشيئة الرب. قال: وهو قول كثير من أصحاب الأشعري كأبي إسحاق الإسفراييني وإمام الحرمين وغيرهم.

وقال السعد التفتازاني في شرح المقاصد بعدما نقل الخلاف ما نصه: "ثم المشهور فيما بين القوم المذكور في كتبهم أن مذهب إمام الحرمين أن فعل العبد واقع بقدرته وإرادته إيجاباً كما هو رأي الحكماء مع قول الإمام في "الإرشاد".

المراد بالهداية هنا: التوفيق والإلهام، وهذه الهداية هي المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (النحل: ٩٣) وفى قوله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ ﴾ [النحل: ٣٧] وفى قول النبي ﷺ: "**من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له**" وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] والمشيئة ترادف الإرادة، فكل من شاء الله تعالى هدايته، من جميع خلقه (يهتدي) الهداية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٦ - ٧] من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

واعلم أن أنواع الهداية أربعة:

النوع الأول: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] أي أعطى كل شيء صورته الذي لا يشبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه من الأعمال.

وهذه الهداية تعم هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره وهداية الجماد المسخر لما خلقه له، فله الهداية التي تليق به. كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وضروبها. وكذلك لكل عضو هداية تليق به، فالرجلان للمشي واليدان للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للسمع،

والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان للازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه. ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين. وقد هدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك ربها مذللة لها، لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها وهداها إلى طاعة يعسوبها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصفة المحكمة البناء ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم، شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعرف لنجدي الخير والشر، وطريقي الهلاك والنجاة، وهذه لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينتفي الهدى معها لقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] أي بيَّنا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق، والإلهام المستلزمة للهدى التي ذكرناها آنفاً.

النوع الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار، إذا سبق أهلهما إليهما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ ﴾ [يونس: ٩] وقال أهل الجنة فيها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٣].

تنبيه

المشهور عند المعتزلة أن الهداية هي الدلالة الموصلة إلى المطلوب، فإن لم تكن موصلة إلى المطلوب، فليست بهداية عندهم.

وعند أهل الحق مجرد الدلالة على طريق يوصل إلى المطلوب، سواء حصل الوصول والاهتداء أو لم يحصل. كما ذكرنا ذلك في النوع الثاني من أنواع الهداية.

(وإن يرد) الله تعالى (ضلال عبد) من خلقه بترك المأمور وارتكاب المحظور (يعتد) بارتكاب ذلك وانتهاك المحارم واقتحام المهالك، والضلال ضد الهدى.

يقال: عدا عدواً وعدواناً محركة، وتعدى وأعدى أحضر وعدا عليه عدواناً بالظلم ظلمه، كعدى واعتدى.

قال الإمام المحقق: إن العدوان يتعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم. كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما أن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه فإذا أتلف إنسان عليه شيئاً أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة قال أضعافها، فهذا كله عدوان وتعدٍ للعدل.

قال: وهو نوعان: عدوان في حق الله تعالى، كما إذا تعدى ما أباح لهم الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات، إلى ما حرم عليه من سواهما كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المعارج:٢٩ - ٣١].

وكذلك لو تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منهما كوطئها في حيضها أو نفاسها، أو في إحرام أحدهما أو صيامه الواجب، وكذلك كلما أبيح له قدر معين فتعداه إلى أكثر منه، وكذلك العدوان في حق العبد تجاوز القدر الذي أبيح له منه، فمتى تجاوز القدر المحدود كان معتدياً، وباغياً وظالماً، كارتكاب الإثم والعدوان والفحشاء والمنكر والخطايا والذنوب والضلال ومن أعظمها، بل أعظمها القول على الله بلا علم، فهو أشد المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان، ولا تباح بحال بل لا تكون إلا بحرمة، وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَـٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

والحاصل: أن الله تعالى إذا أراد هداية عبد يهتدي، وإذا أراد ضلاله وإهلاكه يعتدي، فهو سبحانه الموفق لمن أراد له السعادة. والخاذل لم شاء إبعاده، فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو تعالى المحمود في هذا وهذا له أتم

حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئاً هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

فإذا علم العبد هذا المقام وشهده وأعطاه حقه علم ضرورته وفاقته إلى التوفيق والهداية، في كل نفس ولحظة وطرفة عين، وعلم أن توحيده وإيمانه ممسك بيد غيره، لو تخلى عنه طرفة عين لفل عرشه ولخرَّت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. فدأب هذا المشاهد لهذا المقام أن يقول بقلبه ولسانه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك، يا حي يا قيوم يا بديع السماوات والأرض ياذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث اصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك.

تنبيه

فهم من النظم أن الباري جل وعلا يريد من العبيد مالا يرضاه ولا يحبه، فإن الإرادة والمشيئة مترادفتان، وهي لا تستلزم الأمر والرضا والمحبة كما تقدم.

وقالت المعتزلة: يمتنع عليه تعالى إرادة الشر والمعاصي والقبائح. وقالوا: يريد مالا يقع ويقع مالا يريد، فزعموا أنه تعالى أراد من الكافر الإيمان، وإن لم يقع إلا الكفر وإن وقع، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق، حتى زعموا أن أكثر ما يقع من عباده على خلاف مراده تعالى عن ذلك، وزعموا أن إرادة القبيح قبيحه، والله تعالى منـــزه عن القبائح ورد بأنه تعالى لا يقبح منه شيء وإن خفي علينا حسنه، وتقدم.

والحاصل: أن الأمر والرضا والمحبة لا تكون إلا في الخير، والإرادة قد تكون في الخير، وقد تكون في غيره، فهي تتعلق بكل ممكن، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر: ٧] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وإن قلت: قد قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾

[الإسراء: ١٦].

الإرادة الكونية والإرادة الدينية:

فالجواب: إن الإرادة التي نعنيها هي الإرادة الكونية، وأما الإرادة الدينية فهي ترادف الرضا والمحبة، وكذا الأمر الذي نعنيه أو نتكلم عليه الأمر الدينى، وأما الأمر الكوني فهو يرادف الإرادة كما في عدة آيات قرآنية، على أن أظهر تفاسير قوله تعالى: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أي أمرناهم بطاعتنا والانقياد لأمرنا على ألسنة رسلنا ففسقوا بمخالفة رسلنا.

ومما يحكى أن القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي دخل على الصاحب ابن عبَّاد وكان معتزليًّا أيضاً، وكان الأستاذ أبو إسحق الإسفراييني من أئمة أهل السنة ومحققي الأشاعرة، فقال عبد الجبار على الفور: سبحان من تنـــزه عن الفحشاء. وقال أبو إسحق فوراً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء. فقال له عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى على بالردى، أو أحسن إلي أم أساء؟ فقال له الأستاذ أبو إسحق: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له فقد اختص برحمته من يشاء. فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله ليس عن هذا جواب.

فإن قيل: كيف يريد سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع إرادته وبغضه وكراهته.

فالجواب: اعلم أن هذا السؤال أصل الافتراق والإضلال الواقع بين طوائف المسلمين، وفرق الموحدين.

واعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد، والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران بغضه وإرادته من غير تناف

لاختلاف تعلقهما، كالدواء المتناهي في الكراهية، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وقطع المسافة الشاقة جداً. إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب. وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟ فهو سبحانه يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من قوته. من ذلك خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات وهو سبب شقاء العبيد وعملهم، بما يغضب الرب المريد وهو الساعي في وقوع مساخط الله ومناهيه بكل طريق وحيلة. فهو مسخوط للباري مبغض قد لعنه وغضب عليه وأبعده.

ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثير للباري جل وعلا ترتب وجودها على خلقه، وإيجاده وجودها أحب إلى الله من عدمها، الحكمة جرت منه في عباده على وفق مراده.

(١) منها: إظهار القدرة على خلق المتضادات المتقابلات كخلق هذه الذات التي هي أحب الذوات وشرها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها. وهي مادة كل خير. فتبارك الله خالق الأضداد. وكما ظهرت قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبح، والأرض والسماء، والماء والنار، والخير والشر.

وكل ذلك ونظائره من دلائل كمال قدرته وعزته، فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته. فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

(٢) ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية كالقهار والمنتقم والعدل والضار ونحوها وظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه

وعتقه لمن شاء من عبيده. فلولا خلق ما يكره من الأسباب المقتضية لظهور هذه الأسماء، لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وفى الحديث "**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**".

(٣) ومنها: ظهور آثار أسمائه الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها وينــزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينــزله غير منــزلته التي يقتضيها كمال علمه، وحكمته وخبرته من المنع والعطاء، والثواب والعقاب، والخفض والرفع، والعز والذل ونحوها.

(٤) ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ولكان الحاصل بعضها لا كلها، فعبودية الجهاد سببها الكفر والعناد الناشئ عن تلبيس إبليس، وعبودية التوبة المحبوبة إلى الله تعالى وعبوديته مخالفة أعدائه ومراغمتهم.

(٥) ومنها: عبودية الاستعاذة من الشيطان الرجيم ونفي اتخاذ إبليس عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها. إلى غير ذلك من الحكم والفوائد التي أبداها الإمام المحقق في شرح منازل السائرين، فلخصت منها ما لعله يدل النطق على مالا يدخل تحت الإحصاء، فإن وجودها مترتب على وجود إبليس ترتيب وجود المسبب على سببه والملزوم على لازمه.

فصل

في الكلام على الرزق وهو اسم لما يسوقه الله تعالى للحيوان فيأكله

قال في القاموس: الرزق بالكسر ما ينتفع به كل مرتزق، والجمع أرزاق، وبالفتح المصدر وقد أشار الناظم إلى ذكره بقوله:

والــرزقُ مــا ينفعُ من حلال   أو ضــدَّه فحــلَّ عــن المحالِ
لأنــه رازق كــل الخلــقِ   ولــيسَ مخلــوقٍ بغــير رزقِ
ومــن يُمــتْ بقتلهِ من البشرِ   أو غــيره فبالقــضاءِ والقــدرِ

ولم يفـــتْ منْ رزقه ولا الأجلِ شيء فدع أهلَ الضلالِ والخطلِ

(والرزق ما ينفع) المرتزق. أي ينتفع المرتزق بحصوله له، وسواء أكان المنتفع به (حلال) وهو ما انحلت عنه التبعات، وهو ضد الحرام.

ولهذا قال (أو ضده) أي ضد الحلال وهو الحرام، وهو ما منع منه شرعاً إما لصفة في ذاته ظاهرة، كالسم والخمر أو خفية كالربا، ومذكي المجوس ونحوهم لأنه في حكم الميتة، وإما الخلل في تحصيله كالربا والغصب ونحو ذلك، فكل ذلك رزق؛ لأن الله تعالى يسوقه للحيوان فيتناوله ويتغذى به.

وخالفت المعتزلة في ذلك فقالوا: الحرام ليس برزق، وفسروه تارة بمملوك يأكله المالك، وتارة مما لا يمنع عن الانتفاع به، وذلك لا يكون إلا حلالاً.

فيلزمهم على التفسير الأول أن ما تأكله الدواب ليس برزق، مع ظاهر قوله تعالى ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ [هود: ٦] فيكون مصادماً للقرآن لأنه يقتضي أن تكون كل دابة مرزوقة، ولا ينفعهم زعمهم أن تسمية ما يأكله الدواب رزقاً، مبنى على تشبيه بما هو مملوك الإنسان فيأكله فيكون لفظ الرزق مجازاً عما تأكله الدواب، فلا يلزم أن تكون كل دابة مرزوقة حقيقة.

لأنا نقول هذا التأويل مخالف لظاهر القرآن، وهو خلاف المتعارف في اللغة، فلا يصح ارتكابه من غير ضرورة.

ثم إن تفسيرهم الرزق بذلك ليس بمطرد ولا منعكس لدخول ملك الله تعالى وخروج رزق الدواب والعبيد والإماء، ويلزمهم أيضاً على الوجهين أن من أكل الحرام طول عمره، لم يرزقه الله تعالى أصلاً، وهو خلاف الإجماع الحاصل من الأمة قبل ظهور المعتزلة أن لا رازق إلا الله، وإن استحق العبد اللوم والذم على أكل الحرام.

والإضافة إلى الله تعالى معتبرة في مفهوم الرزق، وكل أحد مستوف رزق نفسه حلالاً، كان أو حراماً، ولا يتصور أن لا يأكل الإنسان رزقه أو يأكل غير رزقه؛ لأن ما قدر الله تعالى غذاء لشخص يجب أن يأكله ويمتنع أن يأكله غيره. ولهذا قال

(فحل) أي زل وأرجع.

(عن المحال) وجه كونه محالاً، أنه لا أحد يبقى بلا رزق، ولا يمكن إلا أن يأكل رزقه، فإذا تغذى طول عمره على الحرام يكون ما رزقه الله تعالى وهو محال.

ولهذا أوضح كونه محالاً بقوله (لأنه) سبحانه وتعالى (رازق كل الخلق) كما في الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية، مما لا يحصى إلا بكلفة كقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ [الذاريات: ٥٨].

(وليس) يوجد (مخلوق) من سائر الحيوانات ويبقى (بغير رزق) فظهر فساد مذهب المعتزلة وحقيقة مذهب أهل الحق، فإن الله تعالى قسم بين الخلق معايشهم في الحياة الدنيا، ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الأنام (ومن يمت) من سائر الحيوانات (بقتله) من سائر أنواع القتل (من البشر) محركة الإنسان ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو جمعاً، وقد يثنى ويجمع إبشاراً، وقدمه للاعتناء به والاهتمام بأحواله، ولأنه المقصود بالذكر، وإنما قال (أو غيره) من سائر الحيوانات لدفع توهم أن ما قتل منها ليس لذلك (ف) موته (بالقضاء) أي بقضاء الله تعالى، وهو لغة الحكم، وعرفاً إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال.

(والقدر) بتحريك الدال وتسكن: مصدر قدرت الشيء بفتح الدال مخففة إذا أحطت بمقداره، وآل فيه وفي القضاء عوض عن مضاف إليه، أي بتقدير الله تعالى لذلك.

وهو عند الماتريدية[1] تحديده تعالى، أزلاً كل مخلوق بحده الذي يوجد به من

---

(١) تُنسب الماتريدية إلى مؤسسها الإمام أبي منصور الماتريدي، وُلِد في قرية ما تريد أو ماتريت، إحدى قرى سمرقند في بلاد ما وراء النهر - ولد سنة ٢٣٨هـ - وتُوفي سنة ٣٣٣ هـ.

يُنظر البحث الممتاز عن (الماتريدية) بكتاب الدكتور عبد الفتاح فؤاد (الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية) جـ١ ص ٢٢٣/٢٨٤ط دار الدعوة بالإسكندرية سنة ١٩٩٧م.

حسن، وقبح، ونفع وضر، وما يحويه من زمان ومكان، وما يترتب عليه طاعة وعصيان، وثواب وعقاب وغفران.

وعند الأشاعرة إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها، طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم.

قال الخطَّابي رحمه الله تعالى: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله تعالى، والقضاء معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه، وقدره، ويتوهم أن قوله ﷺ "**فحج آدم موسى**" من هذا الوجه، وليس كذلك، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى، بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلق لها خيرها وشرها.

قال: والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر، كالهدم والنشر والقبض أسماء لها صدر عن فعل الهادم والناشر والقابض.

يقال: قدرت الشيء. وقدرت خفيفة وثقيلة بمعنى واحد.

قال: والقضاء معناه في هذا الخلق، كقوله تعالى ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾ [فصلت: ١٢] أي خلقهن: وإذا كان الأمر كذلك، فقد بقي عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم واكتسابهم ومباشرتهم تلك الأمور، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد، تقديم إرادة واختيار.

والحجة إنما تلزمهم بها، واللائمة تلحقهم عليها.

قال: وإجماع القول في هذا أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنـــزلة الأساس، والآخر بمنـــزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه، وإنما كان موضع الحجة لآدم على موسى عليهما السلام أن الله سبحانه كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يرد على الله فيه، وأن يبطله بعد ذلك؟ وبيان هذا في قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [البقرة: ٣٠] فأخبر قبل كون آدم إنما خلقه للأرض، وأنه لا يتركه في الجنة حتى ينقله عنها إليها، وإنما كان تناوله سبباً لوقوعه إلى الأرض

التي خلق لها ليكون فيها خليفة والياً على من فيها، فإنما أدلى آدم بالحجة على موسى لهذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه، ولذلك قال: أتلومني على أمر قد قدَّره الله عليَّ من قبل أن يخلقني؟ قال: فقول موسى وإن كان في النفوس منه شبهة. وفي ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذي جعل إمارة لخروجه من الجنة، فقول آدم في تعلقه بالسبب الذي هو بمنـــزلة الأصل أرجح وأقوى، **والفلج**[1] قد يقع مع المعارضة بالترجيح، كما يقع البرهان الذي لا معارض له. انتهى.

والحديث الذي احتج فيه آدم على موسى رواه البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أبي هريرة وروي أيضاً بإسناد جيد من حديث ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: "**احتج آدم موسى**" وفي لفظ، أن موسى قال: يا رب، أرنا آدم الذي أخرجنا من الجنة بخطيئته، فقال موسى: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، لما أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك في التوراة بيده، فكم تجد فيها مكتوباً: وعصى آدم ربه فغوى - قبل أن أخلق؟ قال بأربعين سنة - وفي لفظ قال: أتلومني على أمر قدَّره عليَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ قال فحج آدم موسى".

قال شيخ الإسلام -روح الله روحه: ظن طوائف في هذا الحديث أن آدم احتج بالقدر على الذنب، وأنه حج موسى بذلك.

فطائفة من هؤلاء يدَّعون التحقيق والعرفان، يحتجون بالقدر على الذنوب، مستدلين بهذا الحديث.

وطائفة يقولون: الاحتجاج به سائغ في الآخرة والدنيا.

وطائفة يقولون: هو حجة للخاصة المشاهدين للقدر دون العامة، وطائفة كذبت به كالجبائي وغيره.

وطائفة تأولته تأويلات فاسدة مثل قول بعضهم: إنما حجة لأنه كان قد تاب، وقول آخر: كان أباه والابن لا يلوم أباه، وقول آخر: كان الذم في شريعة، واللوم

(١) الفلج بحجته : أثبتها (المصباح المنير) للفيومي المقري.

في أخرى.

قال: وهذا كله تعريج عن مقصود الحديث.

وظاهر كلامهم ما يؤخذ من كلام شيخ الإسلام ومن مفهوم الحديث أن آدم إنما حج موسى عليهما السلام، لكونه قد كان تاب من الذنب الصوري واستسلم للمصيبة التي لحقت الذرية بسبب أكله المقدر عليه. فالحديث تضمن التسليم للقدر عند المصائب لا عند الذنوب والمعائب، فيصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب، كما قال تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾ [التغابن: ١١].

قالت طائفة من السلف: كان ابن مسعود ﷺ يقول: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. فالإيمان بالقدر والرضا بما قدره الله من المصائب، والتسليم لذلك هو من حقيقة الإيمان، وأما الذنوب فليس لأحد أن يحتج على فعلها بقدر الله تعالى، بل عليه أن لا يفعلها، وإذا فعلها فعليه أن يتوب منها. كما فعل آدم عليه السلام.

إذا علمت هذا فقوله: ومن يمت إلخ. أن المراد المقتول ميت بأجله، أي الوقت المقدر لموته، لاكما يزعم بعض المعتزلة من أن الله تعالى قد قطع عليه الأجل والحق عند أهل الحق أن المقتول ميت في الوقت الذي قدره الله تعالى له، وعلم أنه يموت فيه لاكما زعمت المعتزلة، أنه قد قطع عليه الأجل، أي لم يوصله إليه. وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أمد هو أجله، الذي علم الله موته فيه، لولا القتل فهم يقطعون بامتداد العمر لولا القتل.

فعندهم القاتل قد قطع عليه الأجل، ويزعم أبو الهذيل: أنه لو لم يقتل لمات فما ذلك الوقت البتة. وقول غيره لو لم يقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت وأن لا يموت، وهو مذهب أهل السنة – يعنى إلى أجله الذي إذا جاء لا يتأخر ولا يتقدم، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والحاصل أن المقتول مات بأجله الذي أجله الله تعالى، الذي لا يتقدم موته عليه لحظة، ولا يتأخر عنه لحظة، فإنه عز وجل حكم بآجال العباد على علم من غير تردد، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

وأما الأحاديث التي فيها أن بعض الطاعات تزيد في العمر مثل صلة الرحم ونحو ذلك، مما جاء أنه يقصر العمر، فهذا في الصحف التي يقع فيها المحو والإثبات، وعلم الله تعالى لا يقع فيه تغيير ولا زيادة ولا نقصان. الحق أن الأجل واحد، لا كما زعم الكعبي: أن للمقتول أجلين، القتل والموت، وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت، ولا كما زعمت الفلاسفة أن للحيوان أجلاً طبيعياً، قيل هو في الإنسان أن يبلغ مائة وعشرين سنة، وموته عندهم بتحلل رطوبته وانطفاء حرارته الغريزيتين، وأجل آخر غير الطبيعي اخترامه[1] بحسب الآفات والأمراض.

ولرد هذه المذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة العاطلة أشير بقوله (ولم يفت) على المقتول ولا غيره (من رزقه) المقسوم له في علم الحي القيوم شيء قلّ ولا جل.

(ولا) فاته أيضاً من (الأجل) المحتوم (شيء) ولا لحظة واحدة.

---

(١) إهلاكه.

الباب الثالث

الإيمان ومتعلقاته

- الذنوب ومتعلقاتها.
- الإيمان واختلاف الناس فيه.
- الإيمان والإسلام: هل هما شيء واحد أو شيئان؟.
- ذكر الملكين الموكلين بالعبد.

الباب الثالث

في الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك

اعلم وفّقني الله وإياك وسائر المسلمين لمرضاته، أن طرق الناس قد اختلفت في علة التكليف، وحكمته مع كون الله تعالى لا ينتفع بطاعة، ولا تضره معصية.

فسلكت الجبرية ومن وافقهم مسلكهم المعروف، وأن ذلك صادر عن محض المشيئة وصرف الإرادة، وأنه لا علة ولا حكمة له، ولا ما يحدث عليه سوى محض الإرادة.

وسلكت القدرية مسلكها المعروف، وهو أن ذلك استئجار منه لعبيده لينالوا أجرهم بالعمل، فيكون الذنب اقتضاؤهم الثواب بلا عمل، لما فيه من تكدير المنة، والمسلكان فاسدان كما ترى، وحسبك ما يدل عليه العقل الصريح، والنقل الصحيح، من بطلان هذين المذهبين وفسادهما، وليس عند الرسل، ممن يرى أن الشرائع وضعت نواميس تقوم عليها مصلحة الناس ومعايشهم، وأن فائدتها تكميل قوة النفس العملية وارتياضها لتخرج من شبه الأنعام، فتصير مستعدة لأن تكون محلاً لقبول الفلسفة العليا والحكمة.

وهذا مسلك خارج عن مناهج الأنبياء وأممهم.

وأما اتباع الرسل الذين هم أصل البصائر، فحكمة الله عز وجل في تكليفهم ماكلفهم به أعظم وأجل عندهم، مما يخطر بالبال أو أعرب به المقال، فيشهدون له سبحانه في ذلك من الحكم الباهرة والأسحار العظيمة، أكثر مما يشهدونه في مخلوقاته وما تضمنته من الأسرار والحكمْ. ويعلمون مع ذلك أنه لا نسبة لما اطلعهم سبحانه عليه من ذلك إلى ما طوى علمه عنه، واستأثر به دونهم وأن حكمته في أمره ونهيه، لأنه جل وعلا أهل أن يعبد، وإلى هذا المقام أشار بقوله:

وواجبٌ على العبادِ طرا	أن يعبدوه طاعةً وبرا
ويفعلوا الفعل الذي به أمرْ	حتماً ويتركوا الذي عنهُ زَجْر

(وواجب على العباد طرا) أي جميعاً، وفي حديث قس بن ساعدة الأيادي:

ومراد المحشر الخلق طرا. قال في النهاية: أي جميعاً، وهو منصوب على المصدر أو الحال.

(أن يعبدوه) سبحانه وتعالى (طاعة) أي لأجل الطاعة، وامتثال الأمر، لما ندب الخلق من التكليف على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

(وبرا) أي لأجل البر والإحسان الناشئ عنهما المحبة.

قال في النهاية: البر بالكسر الإحسان والتقرب إلى الله تعالى، فهو سبحانه أهل أن يعبد، وأهل أن يكون الحب كله له، والعبادة له حتى لو لم يخلق جنة ولا ناراً، ولا وضع ثواباً ولا عقاباً، لكان جل شأنه أهل أن يعبد أقصى ما تناله قدرة خلقه من العبادة.

وفى بعض الآثار الإلهية "لو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أعبد" وفى الفطرة والعقل، ما يقتضي شكره وإفراده بالعبادة، كما فيهما ما يقضى تناول المنافع واجتناب المضار، فإن الله تعالى فطر خلقه على محبته - والإقبال عليه، وابتغاء الوسيلة إليه، وأنه لا شيء على الإطلاق أحب إلى العباد منه، وإن فسدت فطر الخلق بما طرأ عليها بما اقتطعها واجتالها عما خلق فيها كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم: ٣٠] فبين سبحانه أن إقامة التوجه، وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه، معرضاً عما سواه، فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خلوا، ودواعي فطرهم لما مالوا عن ذلك ولا اختاروا سواه، ولكن غيرت الفطر وأفسدت، كما قال النبي ﷺ: "**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها**".

ثم يقول أبو هريرة ﷺ اقرءوا ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٠-٣١] ومنيبين نصب على الحال من المفعول، أي فطرهم منيبين إليه، والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده، والإعراض عما سواه.

فأخبر سبحانه أنه إنما خلق عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له، والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره، وهذا من الخلق الذي خلقت له وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم، ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنــزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه، وآثرت غيره.

فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويثنى عليه، أمر ثابت له لذاته، فهو سبحانه الحق المبين، والإله هو الذي يستحق أن يؤله محبة وتعظيماً وخشية وخضوعاً، وتذللا وعبادة فهو الإله الحق ولو لم يخلق خلقه، وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه، فهو المعبود حقًّا، الإله حقًّا، المحمود حقًّا، ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يألهوه، لم يستحدث تعالى بخلقه لهم ولا بأمره إياهم، استحقاق الإلهية والحمد، بل إلهيته وحمده ومجده وغناه، أوصاف ذاتية له سبحانه وتعالى ويستحيل مفارقتها له، كحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله.

وقد جاءت الرسل وأنــزلت الكتب بتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك، وتكميله وتفصيله وزيادته حسناً إلى حسنه، فأتفقت شريعته وفطرته وتطابقتا وتوافقتا، فعبده عباده وأحبوه ومجدوه بداعِي الشرع وداعي الفطرة والعقل، فاجتمعت لهم الدواعي ودعتهم إلى وليهم وإلههم وفاطرهم، فأقبلوا إليه بقلوب سليمة، ولم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريباً وشكاً، ولا أمره شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواه.

وقد قام النبي ﷺ حتى تفطرت قدماه فقيل له: تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنب وما تأخر؟ قال: "**أفلا أكون عبداً شكوراً**" واقتصر ﷺ من جوابهم على ما تدركه عقولهم، وتناله أفهامهم، وإلا فمن المعلوم أن باعثه على ذلك الشكر أمر يجل عن الوصف ولا تحيط به العبارة والأذهان، فأين هذا الشهود من شهود طائفتي القدرية والجبرية.

واعلم أنه لا يمكن أحداً من خلقه قط أن يعبده حق عبادته، ولا يوفيه حقه

من المحبة والحمد، ولهذا قال أكمل خلقه وأفضلهم، وأعرفهم به وأحبهم إليه، وأطوعهم له "لا أحصى ثناء عليك" وأخبر ﷺ أن عمله لا يستقل بالنجاة فقال "**لن ينجي أحداً منكم عمله؟ قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**".

وفي الحديث المرفوع المشهور: أن من الملائكة من هو ساجد، لا يرفع رأسه من الركوع منذ خلق إلى يوم القيامة، وأنهم يقولون يوم القيامة، سبحانه ما عبدناك حق عبادتك.

ولما كانت عبادته تعالى تابعة لمحبته وإجلاله، وكانت المحبة نوعين: محبة تنشأ عن الإنعام والإحسان، فتوجب شكراً وعبودية بحسب كمالها ونقصانها، ومحبة تنشأ عن جمال المحبوب وكماله، فتوجب عبودية وطاعة وأمرًا واجتناباً فهي أكمل من الأولى، وكان الباعث على الطاعة والعبودية أن لا يخرج عن هذين النوعين.

فصل

في الكلام عن الذنوب ومتعلقاتها

قال الحافظ العلامة شمس الدين محمد بن عبد الهادي الحنبلي من بنى قدامة في مناقب شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية -قدّس الله روحه-: أول خلاف حدث في الملة في الفاسق الملّي هل هو كافر أو مسلم؟ فقالت الخوارج: إنه كافر وقالت الجماعة: إنه مؤمن. وقالت طائفة المعتزلة: هو لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين، وخلوده في النار، وأما أهل السنة فلم يخرجوه من الإسلام، ولم يحكموا عليه بخلود في النار، وإنما هو فاسق بكبيرته مؤمن بإيمانه، وهو تحت مشيئة الله تعالى. ولهذا قال:

ويفسق المذنبُ بالكبيرة ... كذا إذا أصرَّ بالصغيرة
لا يخرج المرءُ من الإيمان ... بموبقات الذنب والعصيان
وواجبٌ عليه أن يتوبا ... من كل ما جرَّ عليه حوبا
ويقبل المولى بمحض الفضل ... من غير عبد كافر منفصل

مــالم يــتبْ من كفره بضده ... فيرتجــع عــن شركه وصده
ومــن يمت ولم يتب من الخطا ... فأمــره مفــوَّض لــذى العطا
فــإن يشأ يعفُ وإن شاء انتقمْ ... وإن يــشاء أعطى وأجزل النِّعمْ

(ويفسق) المسلم المكلف (المذنب) بإتيانه المعصية (الكبيرة) أصل الفسوق الخروج عن الاستقامة والجور وبه سمي العاصي فاسقاً، والمذنب هو المقترف للذنب، وهو الآثم. قال تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة: ٢].

قال في (شرح منازل السائرين) الإثم والعدوان، كل منهما إذا أفرد تضمن الآخر، فكل إثم عدوان؛ إذ هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به، فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم؛ لأنه يأثم به صاحبه، لكن عند اقترانهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما، فالإثم ما كان محرم الجنس، كالكذب، والزنا، وشرب الخمر ونحو ذلك. والعدوان ما كان محرم القدر والزيادة، بأن يتعدى على ماله أو بدنه، أو عرضه، والكبيرة: كل معصية فيها حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة.

وزاد شيخ الإسلام: أو ورد فيها وعيد بنفي إيمان أو لعن ونحوهما.

قال في شرح البخاري للبدر العيني عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس -رضي الله عنهما-: "الكبائر سبع؟ فقال ابن عباس: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار".

وقد أوصلها علماؤنا إلى نيف وسبعين كما في الإقناع وغيره.

وقوله (كذا)، أي مثل إتيانه الكبيرة (إذا أصر) على الجريمة الصغيرة، يقال: أصر يصر على الشيء إصراراً: إذا لزمه وداومه، وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب،وأما من اتبع الذنب الصغير بالاستغفار، فليس بمصر عليه وإن تكرر منه.

وفى الحديث " ما أصر من استغفر" وفيه أيضاً "ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون" فمن أصر فإنه يفسق حتى (بـــ) الجريمة (الصغيرة) لأن الإصرار يصير الصغيرة في حكم الكبيرة.

قال بعض العلماء: تصير الصغيرة كبيرة بخمسة أشياء: الإصرار عليها، والتهاون بها، والفرح بها، والافتخار بها، وصدورها عن عالم فيقتدي به فيها.

ثم ذكر ما عليه أهل السنة من أن إتيان الجريمة، وإن كانت كبيرة لا يخرج بها الشخص المؤمن عن الإيمان بقوله (لا يخرج المرء) بتثليث الميم - الإنسان أو الرجل، ولا يجمع من لفظه وسمع مرون. قال في القاموس (من الإيمان) الآتي تعريفه فيما بعد إن شاء الله تعالى (بموبقات الذنب) متعلق بقوله: لا يخرج، والموبقات - بموحدة وقاف - المهلكات - سميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها في الدنيا، بما يترتب عليها من العقاب في الآخرة من العذاب.

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة ﷺ "اجتنبوا السبع الموبقات، الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات".

والحكمة في الاقتصار على السبع المذكورة في الحديث مع ورود ما يزيد على السبعين في أحاديث متفرقة، أن هذه موصوفة بصفة زائدة على مجرد الكبيرة وهي الموبقة أي المهلكة.

والمراد: أن الإنسان لا يخرج من الإيمان بملابسته وإتيانه بموبقات الذنوب، التي هي أكبر الكبائر، وأل في الذنب للجنس أو الاستغراق، فيشمل كل الذنوب.

(والعصيان) دون الشرك بالله تعالى والكفر به بأي أنواع المكفرات ذلك لا يخرج من الدين بيقين.

والعصيان: ضد الطاعة وهو يرادف الذنب والإثم والجرم، وكذا البغي والعدوان والظلم، ولكن قد يفهم من هذه تجاوز الحد المباح.

والحاصل: أن الشخص المؤمن لا يخرج من الإيمان بملابسته كبائر الذنوب والعصيان.

ومذهب أهل الحق من أهل السنة: أن مرتكب الكبيرة في مشيئة الله تعالى وعفوه؛ لأن أصل الإيمان من التصديق بالله والمعرفة والإذعان موجود، ونصوص

الكتاب والسنة لا تدل إلا على هذا كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ ﴾ [البقرة: ١٧٨] الآيتين. وفى ذلك يقول ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨] فسماه أخا وقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨] وقوله ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وفى الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال، وحوله عصابة من أصحابه: **"بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه"** قال: فبايعناه على ذلك.

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه **"ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة"**، أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس وأبو عوانة من حديث أبى ذر أيضاً.

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **"يقول الله تعالى: من تقرَّب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً، أتيته بقرابها مغفرة"** وقال ﷺ: **"من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة"** وقال **"من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"** وقال **"إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبغي بذلك وجه الله"**.

وفى حديث الشفاعة **"أخرجوا من النار من في قلبه حبة خردل من إيمان"**

وفيه يقول الله عز وجل "**وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله**".

فالتوحيد من أعظم بل أعظم أسباب المغفرة، فهو السبب الأعظم فمن فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨] فدلت الآية مع حديث أنس أن من جاء مع التوحيد بملء الأرض خطايا لقيه الله تعالى بملئها مغفرة مع مشيئة الله تعالى، فإن شاء غفر له وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة.

وأما آية النساء ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ فلها نظائر أمثالها من نصوص الوعيد، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣].

وكذلك ما ورد من السنة كقوله ﷺ: "**من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوج بها خالداً مخلداً في نار جهنم**" ونظائره كثيرة.

فقالت فرقة: الوعيد في حق المستحل لها لأنه كافر، وأما من فعلها غير مستحلها لم يلحقه وعيد الخلود.

وقد أنكر الإمام أحمد ﷺ هذا القول، وقال لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافراً، والنبي ﷺ إنما قال: من فعل كذا وكذا.

وقالت فرقة: الاستدلال بنصوص الوعيد على هذه مبنيٌّ على ثبوت العموم، قالوا: وليس في اللغة ألفاظ عامة، وقصدهم تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها، لكن ذلك يستلزم تعطيل جملة الشرع، فهم ردوا باطلاً بأبطل منه، وبدعة بأقبح منها. فكانوا كمن رام أن يبنى قصراً فهدم مصراً.

وقالت فرقة أخرى: هذا وعيد، وإخلاف الوعيد لا يذم ولا يمدح، فيجوز على الله تعالى إخلاف الوعيد لا إخلاف الوعد، والفرق بينهما أن الوعيد حقه فإخلافه عفو وهبة، وإسقاط ذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه. والوعد أوجبه على نفسه بوعده، والله لا يخلف الميعاد. وتناظر في هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء

وعمرو بن عبيد المعتزلي، فقال ابن عبيد: يا أبا عمرو، لا يخلف الله وعيده، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ [النساء:٩٣] فقال أبو عمرو: ويحك يا عمرو من العجمة أتيت، إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذماً بل جوداً وكرماً، أما سمعت قول الشاعر:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ... ولا يخشى من صولة المتهدد

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وعلى كل حال فقد قام الدليل على ذكر الموانع من إنفاذ الوعيد بعضها بالإجماع وبعضها بالنص.

فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، فلا تعطل هذه النصوص وأضعاف أضعافها، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن ثم قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتباراً لمقتضى العقاب، ومانعة إعمالاً لأرجحهما، وعلى بناء مصالح الدارين ومفاسدهما وبناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمراً، وقد جعل الله تعالى لكل ضد ضداً يدافعه ومانعاً يمنعه ويكون الحكم للأغلب منهما.

والحاصل والله أعلم كون المذنب الملي وإن كثرت ذنوبه وعظمت خطاياه في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عافاه، وعلى كل حال خلود أهل التوحيد في النار من المحال.

ولما كان من متعلقات الذنوب التوبة وكانت واجبة على كل من تلبس بذنب ذكر ذلك بقوله (وواجب) وجوب لزوم لابد له منه (عليه) أي المذنب (أن يتوبا) بألف الإطلاق للوزن، أي أن يرجع، فالتوبة أصل كل مقام ومفتاح كل حال، فمن لا توبة له لامقام له، ولا حال. وهي لغة الرجوع من شيء إلى آخر.

وقال الإمام النووي: أصل التوبة لغة الرجوع، يقال: تاب وثاب بالمثلثة وآب وأناب: رجع، والمراد بالتوبة هنا الرجوع من الذنب - انتهى. بأن يقلع عنه ويندم عليه، ويعزم على أن لا يعود إليه، ويرضى الآدمي عن ظلامته إن تعلقت به.

قال النووي أركانها ثلاثة: الإقلاع والندم على فعل تلك المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها أبداً وأن لا يغرغر - انتهى.

فإن كانت المعصية لآدمي فلها ركن رابع، وهو التحلل من صاحب ذلك الحق وأصلها الندم وهو ركنها الأعظم.

وفى قوله (من كل ما) أي شيء أو الذي (جر) أي قاد وجذب (عليه) أي المذنب. (حوبا) أي إثما، وفى القاموس: الحوب: الإثم. يقال: حاب بكذا ثم حوبا ويضم.

ومراد الناظم من ذلك من كل ما جر عليه الهلاك والبلاء إشعاراً بوجوب التوبة من كل ذنب كبير أو صغير.

وقد اتفق العلماء على أن التوبة من كل معصية واجبة على الفور، ولا يجوز تأخيرها سواء كانت صغيرة أو كبيرة وأنها من مهمات الإسلام، وقواعد الدين المتأكدة، وظاهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية، على أن من تاب لله توبة نصوحاً، واجتمعت شروط التوبة في حقه، أن يقطع بقبول توبته كرماً منه وفضلاً. وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع.

وإلى قبول التوبة فضلاً وكرماً أشار بقوله (ويقبل المولى) ذو الكرم الواسع والفضل العظيم (بمحض) أي خالص (الفضل) والكرم من غير وجوب عليه تعالى من كل عند مذنب تاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً، بشروطها المذكورة. فإذا اجتمعت الشروط قبلت التوبة فضلاً من الله تعالى ولابد أن تكون من شخص مسلم (غير عبد كافر) بالله ورسوله (منفصل) عن الدين، إما بردة أو كان كافراً أصلياً، فلا تقبل توبته من الذنوب.

(مالم يتب) أي يرجع (من كفره) فيسلم ويقر بالوحدانية. ولمحمد ﷺ بالرسالة

ويقر ويذعن بجميع ما جاء به النبي ﷺ، فيتصف من بعد رجوعه عن الكفر (بضده) من الإسلام، فإن كان مرتداً بإنكار ما علم من الدين بالضرورة إيجاباً وتحريماً، فيرجع عن إنكاره ذلك ويقر ويذعن حسبما جاء به النبي ﷺ الكريم وكلام الله القديم، فإن كان مشركاً أو معتقداً أن لله شريكاً مستقلاً بالنفع والضر، وعلم الغيب مما استأثر الله بعلمه (فـــ) لا يقبل منه ما لم (يرتجع عن شركه) الذي كان متصفاً به (وصده) أي إعراضه عن الدين، واتباع سيد العالمين، بأن يذعن وينقاد لشريعة خير العباد مسلماً خاضعاً مقبلاً بقلبه وقالبه، خالعاً ما كان عليه من ترهاته ومطالبه، فهذا يقبل إسلامه إجماعاً.

تتمـــة

في المسند عن النبي ﷺ **"ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم، والملائكة تستأذنه أن تعاجله وتهلكه والرب تعالى يقول: دعوا عبدي فأنا أعلم به إذ أنشأته من الأرض، إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمنى إلى عبدي، وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته، وإن أتاني نهاراً قبلته، وإن تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن مشى إليّ هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إليّ تبت عليه، من أعظم مني جوداً وكرماً، وأنا الجواد الكريم، عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلأهم إلى مضاجعهم، وأحرسهم على فرشهم، من أقبل إلى تلقيته من بعيد، ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد، ومن أراد مهادي أردت ما يريد، أهل ذكرى أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل مصيبتي لا أقنطهم – وفى لفظ – لا أوئسهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب".**

قال العلامة ابن مفلح: الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله عز وجل، ولا يجرئهم على معاصيه، وجميع النفوس لابد أن تذنب فتعريف النفوس ما

يخلصها من الذنوب من التوبة والحسنات الماحيات كالكفارات والعقوبات، من أعظم فوائد الشريعة وبالله التوفيق.

(ومن) أيْ أيّ امرئ مذنب (يمت) أي يدركه الموت، وهو مصرٌّ على ذنوبه ومنهمك في شهواته (ولم يتب من الخطأ) الذي ارتكبه والإثم الذي اكتسبه، لم نحكم عليه بالكفر، ولا الخلود في النار بل ولا بدخولها، بل نقول فيمن مات مصراً على كبائر الذنوب والخطايا (فأمره) الذي يؤول إليه (مفوض) أي موكول ومزود (الذي) أي صاحب (العطا) الواسع، والكرم والجود والنعم والعطاء يقصر ويمد (فإن يشأ) سبحانه وتعالى (يعف) أي يتجاوز عمن مات، مرتكباً الذنوب، ولم يتب منها والعفو هو التجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه وأصله المحو وذهاب الأثر (وإن شاء انتقم) من (مهدت) له العذر قبلته منه فإن عامله بالفضل عفا وأنعم، وإن عامله بالعدل انتقم وآلم، (وإن يشأ أعطى) النوال (وأجزل) أي أكثر وأعظم لهم (النعم) بكسر النون المشددة وفتح العين المهملة، والاسم بالفتح.

والحاصل أن مذهب أهل الحق من أهل السنة والجماعة أن من مات مذنباً ولو مصراً على كبائر الذنوب، ولم يتب منها، لم نقطع له بخروج من الدين، بل تثبت أنه من المؤمنين، ولم نقطع له بدخول النار، ففوض أمره إلى الحليم الغفار، فإن شاء عذبه، غير أنه لا يخلده في النار، وإن شاء عفا عنه ابتداء، إما بشفاعة مقبولة أو بدعوة صالح، أو بمصيبة من تشديد عند الموت أو غيره من مصائب البرزخ، والصدقة بعد الموت، والأعمال الصالحة التي يهديها غيره له، أو برحمة أرحم الراحمين، ونحو ذلك فإن شاء رفع عنه العذاب، وأجزل له الثواب، ورفع له درجات وبدل الله سيئاته حسنات.

تنبيهان

هذه المسألة يترجمها بعض القوم بمسألة وعيد الفساق. وبعضهم بمسألة عقوبة العصاة، وبعضهم بمسألة انقطاع عذاب أهل الكبائر، وضابطها أن يرتكب المؤمن كبيرة غير مكفرة بلا استدلال، ويموت بلا توبة وحكمها كما تقدم.

والدليل لمذهب أهل الحق الآيات والأحاديث الدالة، على أن المؤمنين يدخلون الجنة، فإن كان بعد العذاب ودخول النار، فهي مسألة انقطاع العذاب، وإن كان قبل ذلك في مسألة العفو التام قال تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧] ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [غافر: ٤٠] وقال ﷺ **"من قال لا إله إلا الله دخل الجنة"** وقال: **"من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق"** وكقوله ﷺ **"يخرج من النار قوم بعد ما امتحشوا وصاروا فحماً فيفرقون على أنهار الجنة ويرش عليهم من مائها، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، فيحيون ويعودون لحالهم الأولى وأحسن"** وقوله ﷺ: **"يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان"** وسيأتي تمام هذا إن شاء الله تعالى.

الثاني: ذكر بعض المحققين انعقاد الإجماع على أنه لابد سمعاً من نفوذ الوعيد في طائفة من العصاة، أو طائفة من كل صنف لا لفرد معين، لجواز العفو، وأقل ما يصدق عليه من نفوذ الوعيد في واحد من كل صنف والأدلة قاضية بقصر العصاة على عصاة الموحدين، وقد رتب بعض الناس على ذلك امتناع سؤال العفو لجميع المسلمين، لمنافاته لذلك. وهذا ساقط إلا إذا قصد العفو ابتداء لكل فرد من أفراد الأمة، على أن العفو يصدق بما بعد العذاب والتعذيب، فمن قال بمنع المنع فهو المصيب.

فصل

في ذكر من قيل بعدم قبول إسلامه، من طوائف أهل العناد والزندقة والإلحاد

اعلم أن علماءنا ذكروا تحتم قتل جماعة من الزنادقة وأهل الإلحاد، لعدم قبول إسلامهم بحسب الظاهر، كالزنديق. ومن تكررت ردته أو كفر بسحره أو سب الله أو رسول ﷺ أو تنقصه، وأما حكمهم في الآخرة فإن صدقوا قبل منهم بلا خلاف، وعن الإمام أحمد ﷺ رواية أن توبتهم تقبل كغيرهم وهذا الذي نختاره.

فالذي نختاره وندين الله به ما أشرنا إليه بقولنا (فكل زنديق) لا يتدين بدين (وكل مارق) من أهل البدع والضلالات (و) كل (جامد) من درزي ودهري وفيلسوف وبرهمي ومعطل، وعابد وثن، وشمس ونار، وغيرهما (و) كل (ملحد) في آيات الله، والمنكر لشرائع الله، وكافر برسول الله ﷺ، وهو مع ذلك (منافق) أي نفاق يبطن الكفر ويظهر الإسلام (إذا تاب) بما هو عليه من الكفر والإلحاد و(استبان) أي امتحن حاله، وطلب بيانه فظهر صحة إيمانه و(نصحه للدين) القويم وصدق إبقائه (فإنه) أي هذا التائب الناصح (يقبل) منه ذلك الرجوبة عن تلك الترهات، وهو مقبول لدى من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات (عن يقين) وهو حكم الذهن الجازم المطابق للواقع، وإنما كان كذلك لقوله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ [البقرة: ١٦٠].

تنبيه

دخل في عموم ما ذكرنا الحلولية والإباحية[1] ومن يفضل متبوعه على الأنبياء ومن يزعم أنه إذا حصلت له المعرفة والتحقيق سقط عنه الأمر والنهي، ومن يزعم أن العارف المحقق يجوز له التدين بدين اليهود والنصارى، وبأي دين شاء، وأنه لا يجب عليه الاعتصام بالكتاب والسنة.

وأمثال هؤلاء الطوائف المارقين.

فمن صدقت توبته وصلحت سريرته ومدحت سيرته ودلت قرائن الأحوال على رجوعه، عما كان مرتكبه من الإفك والضلال. فمقبول عند ذي المنة

---

(١) أفرد عبد القاهر البغدادي فصلاً بعنوان (في ذكر أصناف الحلولية وبيان خروجها عن فرق الإسلام)، ذكر منها الحلاجية المنسوبين للحلاج، والعذافرة، والخرّمية، يشتركون في استباحة المحرّمات وإسقاط المفروضات ..

ومنهم أيضاً السبئية لقولهم بأن عليًّا صار إلهاً بحلول روح الإله فيه ..

ص ٢٥٤ وما بعدها من كتاب (الفَرْق بين الفِرَق) للبغدادي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط صبيح، بدون تاريخ.

والإفضال وبالله التوفيق.

فصل
في الكلام على الإيمان واختلاف الناس فيه وتحقيق مذهب السلف في ذلك

(اعلم) وفقك الله تعالى: أن الناس اختلفوا في حقيقة الإيمان لغة واصطلاحاً وهو تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به عن ربه وهذا القدر متّفق عليه.

ثم وقع الاختلاف، هل يشترط مع ذلك مزيد أمر من جهة إبداء هذا التصديق باللسان المعبر عما في القلب، إذ التصديق من أفعال القلوب، أو من جهة العمل بما صدق به من ذلك كفعل المأمورات، وترك المحظورات، وهذا هو الذي اشتهر من مذهب السلف، ولهذا قال:

إيماننا قول وقصد وعمل   تزيده التقوى وينقص بالزَّلل

(إيماننا) معشر الأثرية من أهل السنة، ما يأتي ذكره، وهو فيما قيل: مشتق من الأمن، وفيه نظر لتبيان مدلولي الأمن والتصديق. إلا أن لوحظ معنى مجازي، فيقال آمنه إذا صدقه، أي آمنه التكذيب، وفى الآية الكريمة ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي بمصدق لنا، وقد اعترض على ذلك جماعة فقالوا: بل الإيمان في اللغة الإقرار،وعند محققي السلف: أن الإيمان وإن قلنا هو التصديق إلا أنه تصديق خاص مقيد بقيود تصل اللفظ بها، وهذا ليس نقلاً للفظ عن أصل اللغة ولا تغييراً له. فإن الله تعالى يأمرنا بإيمان مطلق، بل بإيمان خاص، وصفه وبينه، وهو تصديق تام قائم بالقلب مستلزم لما وجب من الأعمال القلبية وأعمال الجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ولهذا قال:

(قول) باللسان فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة، لا يسمى مصدقاً، فليس بمؤمن كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

(وقصد) أي عقد بالجنان، فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها بقلبه فهو

منافق، وليس بمؤمن، وإذا كان مصدقاً لله بقلبه غير ناطق بلسانه مع القدرة فليس بمؤمن عند سلف الأمة. قال الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨] فنفى الله الإيمان عن المنافقين. وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق، وهو يجحد الرسول وما جاء به ويعاديه كاليهود وغيرهم، ممن سماه الله كافراً ولم يسمه مؤمناً قط، ولا دخلوا في شيء من أحكام الإيمان فهم كفار قال الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤].

﴿ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

(وعمل) بالأركان، وهذا هو اللفظ الوارد عن السلف.

قال البخاري في صحيحه: الإيمان قول وعمل.

قال الحافظ ابن حجر في شرحه: وهو اللفظ الوارد عن السلف، قال: والمراد بالقول النطق بالشهادتين. وأما العمل فالمراد به ما هو أعلم من عمل القلب والجوارح، ليدخل الاعتقاد والعبادات، ومراد من أدخل ذلك في تعريف الإيمان ومن نقاده إنما هو بالنظر إلى ما عند الله.

فالسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله، ومن هنا نشأ لهم القول بزيادة الإيمان ونقصه كما سيأتي.

والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط[1].

والكرامية قالوا: هو نطق فقط[2].

---

(١) المرجئة: بعد أن عرض عبد القاهر البغدادي لأقوال فرق المرجئة قال: (فهذه أقوال المرجئة في الإيمان الذي لأجل تأخيرهم الأعمال عن الإيمان سُمُّوا مرجئة) ص ٢٠٧ (الفَرق بين الفِرَق).

(٢) الكرامية: أصحاب أبى عبد الله محمد كرام ويقول الشهرستاني: (وإنما عددناه من الصفاتية لأنه كان ممن يثبت الصفات، إلا أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه). الملل والنحل ١/ ٩٩.

والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد، والفرق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته، والسلف جعلوها شرطاً في كماله، وهذا بالنظر إلى ما عند الله تعالى.

أما بالنظر إلى ما عندنا، فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقرّ أجريت عليه الأحكام في الدنيا، ولم يحكم عليه بكفر إلا أن اقترن بإقراره فعل يدل على كفره، كالسجود للصنم، فإن كان الفعل لا يدل على الكفر، كالفسق فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نُفي عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فعل الكفر، ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته.

وأثبتت المعتزلة الواسطة كما مر، فقالوا: الفاسق لا مؤمن، ولا كافر، انتهى.
وقال الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين، وغيره: المشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخله في مسمى الإيمان.

وحكى الشافعي ﷺ: إجماع الصحابة والتابعين ومن أدركهم على ذلك.

قال الحافظ ابن رجب: أنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً. وممن أنكر ذلك على قائمة وجعله قولاً محدثاً سعيد بن جبير وميمون بن مهران، وقتادة، وأيوب السختياني، والنخعي، والزهري، ويحيى بن أبي كثير وغيرهم.

وقال الأوزاعي: كان من مضى من السلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، ذكره الإمام البخاري في صحيحه.

وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال

لوفد عبد القيس: "**آمركم بأربع: الإيمان بالله، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغانم الخمس**".

وفى الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "**الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**". ولفظه لمسلم.

قال شيخ الإسلام، -روح الله روحه-: الإيمان الذي أصله في القلب لابد فيه من شيئين: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب.

فقال الجنيد بن محمد -رحمه الله تعالى-: التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب مثل حب الله ورسوله ﷺ، وخشية الله، ويحب ما يحبه الله ورسوله ﷺ، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلب التي أوجبها الله ورسوله ﷺ وجعلها من الإيمان.

ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، ولا يمكن أن يتخلى البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث: "**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهى القلب**" قال أبو هريرة ﷺ: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده.

قال شيخ الإسلام: قول أبى هريرة ﷺ: القلب ملك: تقريب. وقول النبي ﷺ أحسن بياناً، فإن الملك وإن كان صالحاً، فإن الجند لهم اختيار، وقد يعصون به ملكهم وبالعكس. فقد يكون فيهم صلاح مع فساده وفساد مع صلاحه، بخلاف القلب، فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط، فلابد في إيمان القلب من حب الله ورسوله ﷺ، وأن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، قال الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥] منهم لأوثانهم، وقيل: يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا

أشد حباً لله، منهم. وهذا هو الصواب.

فإن المشركون لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله، والمحبة تستلزم إرادة، والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل، فيمتنع أن يكون الإنسان محباً لله ورسوله ﷺ مريداً لما يحبه الله ورسوله ﷺ إرادة جازمة مع قدرته على ذلك، وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم بالإيمان مع قدرته، دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه.

فمذهب أهل الحق من السلف ومن آفاقهم أن الإيمان يتفضل فيزيد وينقص ولهذا قال (تزيده) أي الإيمان المطلق عند الأثرية من السلف.

(التقوى): هي لغة: الحاجز بين الشيئين، واصطلاحًا: التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه وقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المدثر: ٥٦) أي أهل أن يتقى عقابه (وينقص) الإيمان (بـــ) ارتكاب (الزلل) بفتح الزاي المشددة واللام.

والحاصل: أن الإيمان عند السلف ومن وافقهم من أئمة أهل السنة والعرفان يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

قال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان: مذهب أهل السنة والحديث على أن الإيمان يتفاضل، وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص.

قال: زيادة الإيمان الذي أمر الله به، والذى يكون من عباده المؤمنين من وجوه:

(١) أحدهما: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله ﷺ، ووجب على كل أمة التزام ما يرمي به رسلهم مجملاً، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر، ما وجب بعد نـــزول القرآن كله.

ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل ما أخبر به الرسول ﷺ، ما يجب على ما من لغة خبره، فمن عرف القرآن والسنة ومعانيهما، لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لم يلزمه غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول ﷺ بادلناً وظاهراً، ثم مات

قبل أن يعرف شرائع الإسلام مات مؤمناً بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه، ولا ما وقع منه، مثل: إيمان من عرف الشرائع فآمن بها، بل إيمان هذا أكمل وجوباً ووقوعاً فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أي في التشريع بالأمر والنهي لا أن كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة، وأنه فعل ذلك بل الناس متفاضلون في الإيمان أعظم تفاضل.

الثاني: الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن طلب علم التفصيل وعمل به، فإيمانه أكمل ممن عرف ما يجب عليه، بذنبه وكان خائفاً من عقوبة ربه على ترك العمل أكمل إيماناً ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ﷺ ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ مع أنه مقر بنبوته باطناً وظاهراً، فكل ما عمل القلب بما أخبر به الرسول ﷺ فصدقه وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه، على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه إقرار عام والتزام.

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها، فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيماناً مجملاً أو عرف بعضها، وكلما زاد الإنسان معرفة بأسماء الله تعالى وصفاته وآياته، كان إيمانه أكمل.

الثالث: أن العلم والتصديق يكون أقوى من بعض، وأثبت وأبعد على الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل واحد من نفسه.

كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس الهلال وإن اشتركوا فيها، فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، كذلك سماع الصوت وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل فيها الناس أعظم من ذلك من وجوه متعددة.

فالمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الله وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها.

الرابع: أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به.

وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق والرسول ﷺ حق والجنة حق، والنار حق، فهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته، والرغبة في الجنة، والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب له ذلك، فعلم الأول أكمل فإن قوة المسبب تدل على قوة السبب.

وقد نشأت هذه الأمور عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزم. ولهذا قال النبي ﷺ: **"ليس الخبر كالمعاينة"** فإن موسى عليه السلام لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل، لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوها ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، بل قد يكون قلبه مشغولاً عن تصور المخبر به، وإن كان مصدقاً به.

ومعلوم أنه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق.

الخامس: أن أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله ﷺ، وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك، هي كلها من الإيمان، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، واتفاق السلف، وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلاً عظيماً.

السادس: الأعمال الظاهرة مع الباطنة، وهى أيضاً من الإيمان، والناس يتفاضلون فيها.

السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمر به، واستحضاره بحيث لا يكون غافلاً عنه، أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر، والاستحضار يكمل العلم واليقين، ولهذا قال عمير بن حبيب رضي الله عنه: إذا ذكرنا الله وسبحناه وحمدناه، فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه.

الثامن: قد يكون الإنسان مكذباً ومنكراً لأمور لا يعلم أن الرسول ﷺ أخبر بها وأمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق، ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية والحديث أو يتدبر ذلك أو يُفسر له معناه، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه فيصدق بما كان مكذباً به ويعرف ما كان منكراً له، وهذا تصديق جديد وإيمان جديد ازداد به إيمانه، ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلاً، وهذا وإن أشبه المجمل والمفصل لكن صاحب المجمل قد يكون قلبه سليماً عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل، وعن معرفة وإنكار شيء من ذلك فيأتيه التفصيل بعد الإجمال على قلب ساذج.

وأما كثير من الناس بل من أهل العلم والعبادة، فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول ﷺ، وهم لا يعرفون أنها تخالف فإذا عرفوا رجعوا، وكل من ابتدع في الدين قولاً أخطأ فيه، أو عمل عملاً أخطأ فيه، وهو مؤمن بالرسول ﷺ أو عرف ما قاله وآمن به، ولم يعدل عنه هو من هذا الباب، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول ﷺ فهو من هذا الباب، فمن علم ما جاء به الرسول ﷺ وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك. انتهى.

إذا علمت هذا فاعلم أن مذهب السلف من الأمة وجل الأئمة أن الإيمان قول وعمل ونية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وقد روى الإمام أحمد في المسند من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً "الإيمان يزيد وينقص" والآثار عن الصحابة والتابعين وأئمة الدين من أهل السنة والجماعة وأئمة الحديث، وأعلام علماء الصوفية، أكثر من أن تذكر بأن الإيمان قول باللسان وعقد بالجنان، وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وقد ذكرنا من ذلك ما لعله يحصل به المقصود، والله ولي الإحسان.

تنبيه

في الكلام على الإيمان والإسلام هل هما شيء واحد أو شيئان؟

قد ثبت في القرآن إسلام بلا إيمان في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل

لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [الحجرات: ١٤].

وثبت في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: (أعطى النبي ﷺ رهطًا - وفي رواية -قسم قسمًا وترك فيهم من لم يعطه وهو أعجبهم إليه، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنًا؟ فقال رسول الله ﷺ: أو **مسلما.** أقولها ثلاثا، فيردها علي رسول الله ﷺ ثلاثاً- ثم قال: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه مخافة أن يكبه الله في النار**».

فهذا الإسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم، هل هو إسلام يثابون عليه أم أن جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف:

الأول: إنه إسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق، وهذا يروى عن الحسن البصري وابن سيرين وإبراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر، وهو قول حماد بن زيد والإمام أحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، وكثير من أهل الحديث والسنن والحقائق.

الثاني: أن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل، مثل إسلام المنافقين، قالوا: وهؤلاء كفار، فإن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر، وهذا اختيار الإمام البخاري، ومحمد بن نصر المروزي. قال شيخ الإسلام: والسلف مختلفون في ذلك.

وحقيقة الأمر أن من لم يكن من المؤمنين يقال فيه إنه مسلم، ومعه إيمان يمنعه من الخلود في النار، وهذا متفق عليه لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه، فقيل يقال مسلم، ولا يقال: مؤمن. وقيل: بل يقال مؤمن.

والتحقيق: أنه يقال مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم.

قال: فعلى هذا، فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف، المؤمن حقًا، والمنافق في أحكامه الظاهرة، وإن كان المنافق في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، وهو في الباطن ينفي عنه الإسلام والإيمان، وفي الظاهر يستبان له ظاهرًا ويدخل فيه

الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم، لكن معهم جزء منه، وإسلام يثابون عليه ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر، لكن يعاقبون على ترك المفروضات وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم فإنهم قالوا: آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به ظاهرًا وباطنًا، فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم، ولا جاهدوا، وقد كان النبي ﷺ قد دعاهم إلى الجهاد، وقد يكونون من أهل الكبائر وهؤلاء لا يخرجون من الإسلام، بل هم مسلمون، ولكن بين السلف فيهم نزاع لفظي، هل يقال إنهم مؤمنون؟

قال الشالنجي: سألت أحمد عن الإيمان والإسلام، فقال: الإيمان قول وعمل، والإسلام إقرار. وبه قال أبو خيثمة.

وقال ابن أبي شيبة: لا يكون إسلام إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بإسلام.

قال شيخ الإسلام: وحقيقة الفرق بين الإسلام والإيمان والدين، أن الإسلام دين، والدين مصدر، وأن يدين دينًا إذا خضع وذل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسوله ﷺ هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب وهو الخضوع لله وحده بعبادته وحده، دون ما سواه فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، والإسلام هو الاستسلام لله وحده وهو الخضوع له، والعبودية، هكذا قال رحمه الله تعالى وعزاه لأهل اللغة.

فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح.

وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والأصل فيه التصديق، والعمل تابع له، فلهذا فسر النبي ﷺ الإيمان بإيمان مخصوص، وهو المباني الخمسة، وهكذا في سائر كلامه ﷺ.

تتمة

ألحق علماؤنا في آخر هذا الباب ذكر الملكين الموكلين بالعبد، يكتبان أفعاله، وكأنهم نظروا لمناسبة ذلك للأحكام، وكونه مما يجب الإيمان به، وإلا فكان

الأنسب ذكره في ذلك الباب الآتي في السمعيات لأنه منها فلهذا قال:

ووكـــل الله مـــن الكـــرام اثـــنين حـــافظين للأنـــام
فيكتـــبان كـــل أفعال الورى كما أتى في النص من غير امترا

(ووكل الله) سبحانه (من) الملائكة (الكرام) وصفهم بالكرم لما جاء في الكتاب والسنة كما سيأتي، والحق أن الملائكة عليهم السلام ذوات قائمة بأنفسها، قادرة على التشكيل بالقدرة الإلهية، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ.

قال العلامة ابن حمدان في نهاية المبتدئين: وتغير صور الملائكة والجن والشياطين إلى الله لا إليهم.

وقد حكى غير واحد من محققي العلماء، الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينكحون، يسبحون بالليل والنهار لا يفترون (اثنين) مفعول وكل (حافظين للأنام) كسحاب، وبالمد والأنيم كأمير الخلق من الجن والإنس، وجميع ما على وجه الأرض والمراد هنا الإنس.

(فيكتبان) يعني الحافظين (كل أفعال الورى) كفتى الخلق (كما أتى في النص) القرآني كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الانفطار: ١٠- ١٢) قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ (ق:١٨).

(من غير امتراء) أي من غير شك، وهو مشتق من المماراة والمرية بالضم والكسر والشك.

قال علماؤنا: الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد، يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله ولا يفارقان العبد بحال، وقيل بل عند الخلاء.

وقال الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين: عند غائطه، وعند جماعه، ومفارقتهما لا تمنع من كتبهما ما يصدر عنه في تلك الحال، كالاعتقاد القلبي يجعل الله لهما أمارة على ذلك.

قال سيدنا الإمام أحمد ﷺ: للعبد ملائكة يحفظونه بأمر الله تعالى يشير إلى قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الرعد: ١١].

قال العلامة عبد الرحمن العليمي العمري الحنبلي في تفسير القرآن: التعقيب العود بعد البدء، وإنما ذكر بلفظ التأنيث؛ لأن المراد الجماعات التي يعقب بعضها بعضًا.

وقوله (يحفظونه من أمر الله) أي بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه.

وقال القاضي البيضاوي: يحفظونه من أمر الله أي من بأسه، متى أذنب بالإمهال والاستغفار أو يحفظونه من المضاد أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله.

قال أبو عبيدة: أي ملائكة تعقب بعد ملائكة، حفظة بالليل تعقب بعد حفظة النهار، وحفظة النهار تعقب بعد حفظة الليل.

وفي الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء القدر خلوا عنه.

ومن طريق إبراهيم النخعي قال: يحفظونه من الجن.

ومن طريق كعب الأحبار قال: لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتم.

قال العلامة الشيخ مرعي في بهجته: وأما الملائكة الكاتبون: فقيل أربعة، اثنان بالليل واثنان بالنهار، وقيل خمسة واحد لا يفارق في ليل ولا في نهار، انتهى.

والمشهور أنهما: اثنان لكل واحد، قال الضحاك مجلس الملكين تحت الشعر على الحنك، ومثله عن الحسن.

وكان يعجبه أن ينظف عنفقته.

وعنه ﷺ: **(مقعد ملكين على شفتيك، ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجري بما لا يعنيك، ولا تستحي من الله ولا منهما).**

وعنه ﷺ **«كاتب الحسنات عن يمين الرجل، يعنى الشخص –وكاتب السيئات– عن يساره، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل الشخص حسنة كتبها صاحب اليمين عشرًا وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين**

لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات، لعله يسبح أو يستغفر».

والذي رواه البغوي من حديث أبي أمامة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: **«كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، وفيه: دعه سبع ساعات، لعله يسبح الله أو يستغفر».**

فوائد

الأولى: اختلف فيما يكتبه الملكان فقال، عكرمة، لا يكتبان إلا ما يؤجر أو يورد فيه انتهى.

وظاهر النص أنهما يكتبان أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما، قولاً كانت أو عملاً، أو اعتقادًا همًّا كانت أو عزمًا تقريرًا، فلا يهملان من أفعال العباد شيئًا في كل حال.

ولهذا قال مجاهد: يكتبان عليه حتى في مرضه، فقوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ ﴾ أي عنده ﴿ رَقِيبٌ ﴾ أي حافظ يرقب أعماله ويحفظها ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي حاضر معه أينما كان.

وقال الإمام مالك: كقول مجاهد محتجًا بقوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ فإفادة العموم بطريق وقوع النكرة في سياق النفي، فيدخل في ذلك العبد الكافر؛ لأنه تضبط عليه أعماله وأنفاسه.

والصحيح من مذهبنا كالمالكية كتب حسنات الصبي، قال علماؤنا: يكتب له، ولا يكتب عليه، فيكون عليه حفظة، بخلاف المجنون؛ لأنه لا يكتب له ولا عليه.

الثانية: جاء في حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من حافظين يرفعان إلى الله تعالى ما حفظا، فيرى الله تعالى في أول الصحيفة خيرًا، وفي آخرها خيرًا إلا قال للملائكة اشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة»** أخرجه الطبراني وغيره.

قال الحافظ ابن رجب: وهو موجود في بعض نسخ الترمذي.

وفي حديث آخر مرفوع «**ابن آدم اذكرني من أول النهار ساعة، ومن آخر النهار ساعة، اغفر لك ما بين ذلك إلا الكبائر أو تتوب منها**».

وقال ابن المبارك: من ختم نهاره بذكر الله كتب نهاره ذكرًا، يشير إلى أن الأعمال بالخواتيم.

قال الحافظ ابن رجب: فإذا كان البداية والختام ذكرًا فهو أولى أن يكون حكم الذكر شاملاً للجميع. انتهى.

الثالثة: قوله في الخبر حتى أنينه في مرضه، ربما أشعر بأنه مما يكتبه كاتب السيئات؛ لأنه يكتب كل ما أهمله كاتب الحسنات.

ويدل له قول علمائنا: يكره الأنين.

قال في الفروع: على الأصح.

قالوا: لأنه يترجم عن الشكوى ما لم يغلبه، مع أنه جاء في حديث «**المريض أنينه تسبيح وصياحه تكبير، ونفسه صدقة، ونومه عبادة، وتقلبه من جنب إلى جنب جهاد في سبيل الله**»

لكن قال الحافظ ابن حجر: ليس بثابت.

قال وقد جزم أبو الطيب ابن الصباغ وجماعة من الشافعية أن أنين المريض وتأوهه مكروه، وتعقبه الإمام النووي، وقال: هذا ضعيف أو باطل، فإن المكروه ما ثبت فيه نهي مقصود.

وهذا لم يثبت فيه ذلك: ثم قال: فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الأَوْلى، فإنه لاشك أن اشتغاله بالذكر أولى. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: ولعلهم أخذوه بالمعنى من كون كثرة الشكوى، تدل على ضعف اليقين، ويشعر بالتسخط للقضاء ويورث شماتة الأعداء. انتهى.

الرابعة: جاء في الأحاديث: أن الحافظين يقيمان على قبر المؤمن، يسبحان الله تعالى ويهللانه ويكبرانه، ويكتب ثوابه للميت إلى يوم القيامة، وإنهما يلعنان الكافر.

الباب الرابع

في ذكر بقية السمعيات

- سؤال الملكين منكر ونكير.
- تتمة عن بعض الناس من الموتى لا تنالهم فتنة القبور.
- أن عذاب القبر على النفس والبدن جميعًا.
- تتمة (مسائل من أمر الروح).
- فائدتان:

(١) الميثاق من ظهر آدم عليه السلام.

(٢) مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة.

- أشراط الساعة وعلاماتها.

أقسامها الثلاثة

- العلامات العظمى:

١- المهدي	٢-الدجال
٣-المسيح عليه السلام	٤-يأجوج ومأجوج
٥-هدم الكعبة	٦-الدخان.
٧-رفع القرآن العظيم	٨-طلوع الشمس من مغربها
٩-دابة الأرض	١٠-خروج النار.
١١-في أمر المعاد	١٢-الجنة والنار.

١٣-نفخة الفزع ١٤-نفخة الصعق.

١٥-نفخة البعث والنشور ١٦-الحساب.

١٧-أخذ الصحف ١٨-الميزان

١٩-الصراط ٢٠-الشفاعة.

في ذكر بقية السمعيات من ذكر البرزخ والقبور، وأشراط الساعة والحشر والنشور

اعلم أن المراد بالسمعيات، ما كان طريق العلم به السمع الوارد في الكتاب أو السنة والآثار، مما ليس للعقل فيه مجال، ويقابله ما يثبت بالعقل، فإن وافقته النقل، فما كان طريق العلم به العقل يسمى العقليات والنظريات. ولهذا يقال لعلماء هذا الشأن النظار.

منها: سؤال الملكين منكر ونكير:

فالإيمان بذلك واجب شرعًا لثبوته عن النبي ﷺ في عدة أخبار يبلغ مجموعها مبلغ التواتر، وقد استنبط ذلك واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وأخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب ﷺ أن النبي ﷺ قال في هذه الآية نــزلت في عذاب القبر، زاد مسلم: فيقال له من ربك فيقول الله ربي ونبي محمد ﷺ فذلك قوله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ .

وفي رواية للبخاري «**إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**»، فذلك قوله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ .

وفي الطبراني عن البراء أيضًا مرفوعًا (يقال للكافر: من ربك؟ فيقول لا أدري. فهو تلك الساعة أصم أعمى أبكم فيضرب بمرزبة لو ضرب بها جبل لصار ترابًا) الحديث.

وعند أبي داود «**يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله تعالى، فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فافرشوا**

له من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، وألبسوه من الجنة، ويفسح له في قبره مد بصره) وقال في الكافر **(فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري -إلى أن قال- فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي فافرشوا له من النار، وافتحوا بابًا إلى النار، قال: فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه»**.

وروي أيضًا من حديث جابر، ومن حديث أبي سعيد أخرجهما الإمام أحمد ومن حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أخرجه أبو بكر الخلال في كتاب السنة وفيه أنه ﷺ قال: **«كيف أنت يا عمر إذا كنت من الأرض في أربعة أذرع في ذراعين، ورأيت منكرًا ونكيرًا، قلت يا رسول الله: ومنكر ونكير؟ قال: فتانا القبور يبحثان الأرض بأنيابهما ويطآن في أشعارهما، أصواتهما كالرعد العاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف ومعهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى لم يطيقوا رفعها، هي أيسر عليهما من عصاي هذه قلت: يا رسول الله، وأنا على حال هذه؟ قال: نعم. فقلت إذا أكفيكها»**.

وفي رواية (فامتحناك، فإن التويت ضرباك بها ضربة صرت رمادًا).

وروى أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أخرجه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه وفيه قال عمرو: أترد علينا عقولنا يا رسول الله؟ فقال ﷺ (نعم كهيئتكم اليوم) فقال عمرو ﷺ: بغية الحجر.

وروى عن مجاهد: أن الموتى يفتنون في قبورهم سبعًا، فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام.

تنبيهات

الأول: الملكان اسمهما منكر ونكير، نص عليه الإمام أحمد.

قال الحكيم الترمذي: وإنما سميا فتاني القبر؛ لأن في سؤالهما انتهارًا، وفي خلقهما صعوبة. قال: وسميا منكرًا ونكيرًا؛ لأن خلقهما لا يشبه الخلق الآدميين ولا خلق الملائكة ولا خلق البهائم، ولا خلق الهوام، بل هما خلق بديع، وليس في

خلقهما أنس للناظرين إليهما، جعلهما الله تعالى تكرمة للمؤمن لتثبته وتبصره، وهتكًا لستر المنافق في البرزخ من قبل أن يبعث.

قال الجلال السيوطي: وهذا يدل على أن اسم منكر بفتح الكاف وهو المجزوم به في القاموس.

الثاني: من لم يدفن من مصلوب ونحوه، يناله نصيبه من فتنة السؤال وضغطة القبر.

قال المحقق في كتابه الوحي: مما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر، هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبرًا ولو لم يقبر، فلو أكلته السباع أو أحرق، حتى صار رمادًا أو نسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب، ما يصل المقبور.

الثالث: ذكر الحافظ جلال الدين السيوطي: أنه وقع في فتاوى شيخه علم الدين البلقيني: أن الميت يجيب السؤال باللغة السريانية قال: ولم أقف لذلك على مستند. انتهى.

وقال في التذكرة: إن قيل: كيف يخاطب الملكان جميع الموتى في الأماكن المتباعدة في الوقت الواحد؟

فالجواب: أن عظم خلقهما يقتضي ذلك، فيخاطبان الخلق الكثير من الجهة الواحدة في المرة الواحدة، مخاطبة واحدة، بحيث يخيل لكل من المخاطبين أنه المخاطب دون سواه، ويمنعه الله من سماع جواب بقية الموتى.

وقال السيوطي: ويحتمل تعدد الملائكة لذلك كما في الحفظة ونحوهم، وقاله الحليمي من الشافعية، ولا يخفي ما في هذا، وبالله التوفيق.

تتمة:

ورد في صحيح الأخبار أن بعض الناس من الموتى لا تنالهم فتنة القبور، ولا يأتيهم الفتانان، وذلك على ثلاثة أنحاء مضاف إلى عمل ومضاف إلى حال ابتلاء، نـــزل بالميت، ومضاف إلى زمان كالشهداء، ومن لقي العدو، وصبر حتى يقتل أو

يغلب والمرابطين في سبيل الله، والمراد إن مات مرابطًا لم يفتن في قبره، وروى أن سورة تبارك من قرأها كل ليلة عصم من فتنة القبر، ومن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة، وقي فتنة القبر.

وأخرج أبو نعيم في الحلية أن النبي ﷺ قال: «**من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي مات فيه لم يفتن في قبره، أمن ضغطة القبر، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه الصراط إلى الجنة**» وممن لا يسأل الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وأما الجن فالأدلة تعمهم فيسئلون؛ لأنهم مكلفون في الجملة كما نص عليه علماؤنا وغيرهم.

ومنها: أي الأمور التي يجب الإيمان بها وأنها حق لا ترد عذاب القبر.

قال الحافظ الجلال السيوطي: قد ذكر الله تعالى عذاب القبر في القرآن في عدة أماكن كما بينه في الإكليل في أسرار التنزيل.

قال الحافظ ابن رجب في كتابه أهوال القبور في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ (الواقعة: ٨٣- ٩٥).

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآيات قال: «**إذا كان عند الموت قيل له هذا، فإن كان من أصحاب اليمين أحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن كان من أصحاب الشمال كره لقاء الله وكره الله لقاءه**».

وأخرج الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» فأكب القوم يبكون قال: (ما يبكيكم؟) قالوا: إنا نكره الموت، قال: (ليس ذلك ولكنه إذا حضر، ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ ، فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله والله للقائه أحب، ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله، والله للقائه أكره).

وقال الإمام المحقق في كتابه الروح: (قول السائل ما الحكمة في أن عذاب القبر

لم يذكر يعني صريحًا في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟ فأجاب عن ذلك بوجهين مجمل ومفصل، أما المجمل فإن الله تعالى أنــزل على رسوله ﷺ وحيين، فأوجب على عباده الإيمان بهما، والعمل بما فيهما، وهما الكتاب والحكمة. قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (النساء: ١١٣) وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة: ٢) وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

والحكمة هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول عن الله، فهو في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب على لسان رسول الله ﷺ فهذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم.

وقد قال ﷺ: «**إني أوتيت الكتاب ومثله معه**» قال: وأما الجواب المفصل، فهو أن نعيم الروح وعذابه به مذكور في القرآن، في مواضع منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأنعام: ٩٣)، وهذا خطاب لهم عند الموت قطعًا.

وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا، لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون عذاب الهون، وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ إلى قوله ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ (غافر: ٤٥- ٤٦) فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا لا يحتمل غيره.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ ﴾ (الطور: ٤٥- ٤٦) انتهى.

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر**».

وقال ابن مسعود ﷺ في قوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال: المعيشة

الضنك هي عذاب القبر.

وقال الحافظ ابن رجب: وقد تواترت الأحاديث في عذاب القبر، ففي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، قال: نعم عذاب القبر حق.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**».

وأخرج مسلم أيضًا وابن أبي شيبة، عن يزيد بن ثابت ﷺ، بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له، ونحن معه إذ حادت به، فكادت أن تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: (من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟) فقال رجل: أنا، فقال: «**متى مات هؤلاء؟: فقالوا: ماتوا في الإشراك، فقال النبي ﷺ: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار، فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر**» الحديث.

الأمر الثالث: ما ورد في ضغطة القبر وظلمته، لكل أحد، أخرج الإمام أحمد في المسند والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبيهقي في كتاب عذاب القبر، عن حذيفة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فلما انتهينا إلى القبر قعد على شفيره فجعل يردد بصره فيه ثم قال: «**يضغط فيه المؤمن ضغطة تزول منه حمائله**».

قال في النهاية: الحمائل هنا: عروق الأنثيين.

قال: ويحتمل أن يراد موضع حمائل السيف، أي عواتقه وصدره وأضلاعه.

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**إن للقبر ضغطة، لو كان أحد منها ناجياً نجا منها سعد بن معاذ ﷺ**»

وأخرج الإمام أحمد والحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي عن جابر بن عبد الله

رضي الله عنهما قال: لما دفن سعد بن معاذ ﷺ سبح النبي ﷺ وسبح الناس معه طويلا ثم كبر وكبر الناس ثم قالوا: يا رسول الله لم سبحت؟ قال: «**لقد تضايق على هذا الرجل الصالح قبره حتى فرج الله عنه**».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺيوم دفن سعد بن معاذ وهو قاعد على قبره قال: «**لو نجا من ضمة القبر أحد، لنجا منه سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم أرخى عنه**».

وأخرج النسائي والبيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألف من الملائكة، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه**» يعني: سعد بن معاذ.

قال الحسن البصري: تحرك له العرش فرحًا بروحه.

قال أبو قاسم السعدي: والفرق بين المسلم والكافر في ضمة القبر دوامها للكافر، وحصول هذه الحالة للمؤمن في أول نـــزوله إلى قبره، ثم يعود الانفساح له فيه. قال: والمراد بضغطة القبر: التقاء جانبيه على جسد الميت.

قال الحكيم الترمذي: بسبب هذه الضغطة أنه ما من أحد إلا وقد ألم بخطيئة ما، وإن كان صالحًا، فجعلت هذه الضغطة جزاء لها ثم تدركه الرحمة، ولذلك ضغط سعد بن معاذ ﷺ.

قال: وأما الأنبياء فلا نعلم أن لهم في قبورهم ضمة، ولا سؤالاً لعصمتهم، أي لأن السؤال عن الأنبياء وما جاءوا به، فكيف يسألون عن أنفسهم؟.

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ﷺ، أنه رآه المروزي رحمه الله بعد موته، في منامه، فقال له: ما فعل الله بك؟ فذكر أن الملكين سألاه، وقالا له: من ربك؟ قال سبحان الله أو مثلي يسأل عن ربه؟ فقالا: لا تؤاخذنا بذا أمرنا ثم انصرفا. فكيف بأنبياء الله وهم المخبرون عنه، الدالون عليه، المجتهدون في إنقاذ عباده من عقابه وغضبه، إلى مرضاته بإذنه.

قال محمد التميمي: ضمة القبر إنما أصلها أن الأرض أمهم، ومنها خلقوا

فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما ردوا إليها وهم أولادها ضمتهم ضمة الوالدة إذا غاب عنها ولدها، ثم قدم، فمن كان مطيعًا ضمته برأفة ورفق، ومن كان عاصيًا ضمته بعنف سخطًا لربها عليه.

وقد أخرجه البيهقي وابن منده والديلمي وابن النجار، عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، إنك منذ حدثتني بصوت منكر ونكير وضغطة القبر ليس ينفعني شيء قال: «**يا عائشة إن أصوات منكر ونكير في سماع المؤمنين كإثمد في العين، وإن ضغطة القبر على المؤمن كالأم الشفيقة، يشكو إليها ابنها الصداع، وتغمز رأسه غمزًا رفيقًا، ولكن يا عائشة ويل للشاكين في الله، كيف يضغطون في قبورهم كضغطة الصخرة على البيضة**».

فوائد:

الأولى: ذكر الديلمي في الفردوس عن علي ﷺ رفعه (أول عذاب الآخرة القبور، لا يعرف شريف من وضيع) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن الله أرحم ما يكون لعبده، إذا دخل قبره وتفرق عنه الناس وأهله).

وأخرج الديلمي عن أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أرحم ما يكون الله بالعبد إذا وضع في حفرته**».

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي عاصم الحبطي يرفعه «**إن أول ما يتحف به المؤمن في قبره، يقال له: أبشر فقد غفر لمن تبع جنازتك**» وفي الباب أحاديث مخرجة، عن جابر، وسلمان، وأبي هريرة ﷺ.

الثانية: قال بعضهم: من فعل سيئة فإن عقوبتها تدفع عنه بأحد عشر أسباب، أن يتوب فيتاب عليه، أو يستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات فتمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات، أو يبتلى في الدنيا بمصائب فيكفر عنه، أو في البرزخ بالضغطة والفتنة، أو يبتلى في عرصات القيامة بأهوال تكفر عنه، أو تدركه شفاعة نبيه ﷺ أو رحمة ربه تبارك وتعالى.

وتقدم في التوبة طرف صالح من هذا، وبالله التوفيق.

الثالثة: الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل ومفصل، أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته وامتثلت أمره، واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا، فإن عذاب القبر، بل وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه، في هذه الدار، بارتكاب مناهيه، ولم يتب، ومات على ذلك، كان له من عذاب البرزخ، بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب.

وأما المفصل فقد أخبر رسول الله ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما: «**أن أحدهما كان يمشي بالنميمة بين الناس، والآخر كان لا يستتر من البول**»، والحديث في الصحيحين وغيرهما.

قال المحقق في الروح: فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذاك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه، وإن كان صادقًا، وفيه تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابًا، كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيهًا على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض شروطها أشد عذابًا، وفي حديث شعبة «**أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس**» فهذا مغتاب، وذاك نمام.

وفي صحيح البخاري في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق، وفي حديث ابن مسعود في الذي ضرب في قبره سوطًا امتلأ القبر عليه نارًا، لكونه صل صلاة واحدة بغير طهور، ومر على مظلوم فلم ينصره، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به في النهار، وتعذيب الزناة والزواني، وتعذيب آكل الربا كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ، وحديث أبي هريرة وفيه رضخ رءوس أقوام بالصخر لتثاقل رءوسهم عن الصلاة، والذين يأكلون الزقوم والضريع لتركهم الزكاة، والذين يأكلون اللحم النتن الخبيث لزناهم، والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب.

ومن الذين يعذبون في قبورهم، وأخبر عنهم النبي ﷺ الجبارون والمتكبرون،

والمراءون والهمازون، واللمازون، والطعانون على السلف، والذي يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين، فيسألونهم ويصدقونهم، وأعوان الظلمة الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ونحو هؤلاء، ممن يشتغل بذنوب الناس عن ذنبه، وبعيوبهم عن عيبه، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغرها وكبرها.

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين، والفائز منهم قليل فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات، وعذاب، فنسأل الله تعالى العافية والرحمة، والعفو والغفران.

الرابعة: الأسباب المنجية من عذاب القبر على قسمين أيضًا مجمل ومفصل. أما المجمل فهو بحسب ترك تلك الأسباب التي تقتضي العذاب ومن أنفعها أن يجلس عندما يريد النوم له ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعود إلى الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة. فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلا للعمل مسرورًا بتأخير الأجل، وليس للعبد أنفع من هذه التوبة، ولا سيما إذا أعقب ذلك بذكر الله، واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم، حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما المفصل فمنها ما رواه مسلم في صحيحه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات أجرى عليه عمله، الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان**».

وفي سنن الترمذي من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه يجرى عليه عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر**» قال الترمذي حديث حسن صحيح.

وتقدم ذكر الشهداء، والذي يقرأ تبارك الملك، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ «**هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر**» قال الترمذي: حديث حسن غريب.

قال المحقق في كتابه الروح: روينا في مسند عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال الرجل بلى: قال: اقرأ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ احفظها وعلمها أهلك، وولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية، والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب القبر قال رسول الله ﷺ: «**لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي**».

قال أبو عمر بن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن سورة ثلاثين آية شفعت في صاحبها حتى غفر له -تبارك الذي بيده الملك**».

تنبيه

الحق عن أهل السنة أن عذاب القبر على النفس والبدن جميعًا.

فصل

في ذكر الروح والكلام عليها، وقد أشار إلى قطرة من بحر لجي من متعلقاتها فقال:

وإن أرواح الــورى لم تعدم مــع كونها مخلوقة فاستفهم

(و) مما ينبغي العلم به (إن أرواح) بني آدم جمع روح، وقد اختلف في حقيقتها، وهل هي النفس وغيرها، وهل هي جزء من البدن، أو عرض من أعراضه، أو جسم مساكن له مودع فيه، أو جوهر يجري.

وقد تكلم الناس في هذه المسائل من سائر الطوائف، اضطربت فيها أقوالهم

وكثر خطؤهم، ومن الناس من أمسك عن الكلام والخوض فيها، لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] وهدى الله أتباع الرسول وسلف الأمة، وأهل السنة، لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قال الإمام ابن القيم -بعدما ساق أقوال الناس في حقيقة الروح على اختلاف مذاهبهم، وتباين آرائهم، وذكر عدة مذاهب وزيفها، ثم قال: والصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي، خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي هذا الجسم اللطيف متشابكًا بهذه الأعضاء، فأفادها هذه الآثار من الحسن والحركة والإرادة، وإذا أفسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح.

قال: وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصح غيره، ودل عليه الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة، وذكر له مائة دليل وخمسة عشر دليلاً، وأجاد وأفاد، وزيف كلام ابن سينا وابن حزم وأمثالهما.

فائدة:

ذكر بعض المتكلمين: أن محل الروح القلب، واستدل له بحديث ابن عساكر، أن النبي ﷺ قال: «**أما النفس ففي القلب، والقلب بالنياط، والنياط يسقي العروق، فإذا هلك القلب انقطع العرق**» وهذا الحديث مرسل.

وأما اختلاف الناس في الروح هل النفس أو غيرها، فمن الناس من قال: إنهما اسمان لمسمى واحد، وهذا قول الجمهور، وقيل: بل هما متغايران.

قال المحقق بعد كلامه: وقالت فرقة من أهل الحديث والفقه، والتصوف: الروح غير النفس.

قال مقاتل بن سليمان: للإنسان حياة وروح ونفس، فمتى نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه، وتبقى الحياة والروح في ا لجسد فيه يتقلب ويتنفس، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا أراد الله تعالى أن يميته في المنام أمسك تلك النفس التي خرجت.

وقال أيضًا: إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق، فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح، وتخبر الروح القلب فيصبح ويعلم أنه قد رأى كيت وكيت.

وقوله (الورى) محله جر بالإضافة إلى الأرواح، أي أرواح الورى، كفتى الخلق، والمراد بنو آدم، ومثلهم الجن فيما يظهر؛ لأن التكليف والمعاد والحساب، يشملهم (لم تعدم) بموت الأبدان التي كانت فيها ولا تموت هي ولا تفنى، وزعمت طائفة أنها تموت؛ لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت، قالوا: ودلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝ ﴾ (الرحمن: ٢٦-٢٧) وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص: ٨٨).

قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوس البشرية أولى والدليل على عدمها عدم قدمها (مع كونها) أي الأرواح (مخلوقة) لله ومحدثة ومربوبة أوجدها بعد أن لم تكن (فاستفهم) أي اطلب علم ذلك من مظانه، يقال: فهم كفرح فهما ويحرك، وهي أفصح، وفهامة وفهامية: علم الشيء وعرفه بالقلب، وهو فهم، ككتف سريع الفهم، واستفهمني طلب مني فهم المطلوب فأفهمته وفهمته، فالفهم قوة من شأنها أن تعد النفس لاكتساب الآراء، والذكاء جودة تلك القوة والذهن، قيل: يرادف الفهم، وقيل: الذهن، هو نفس القوة والفهم استعمالها، وإنما حث على طلب الفهم في ذلك، وإمعان التدقيق، لإدراك تلك المدارك لاختلاف مقالات الناس في هذا المقام، ولأنه مزلة إقدام، وحاصل ذلك أنه ذكر مسألتين عظيمتين، الأولى أن الروح محدثة، والثانية، أن العدم لا يدركها والفناء لا يلحقها، ولنذكر أدلة كل مسألة

وحكمها وما فيها من الخطأ والصواب، ولنقدم ما أخره في النظم، نظرًا للواقع.

اعلم رحمك الله أن هذه المسألة زل فيها عالم وطوائف من بني آدم، وهدى الله أتباع رسله فيها للحق المبين والصواب المستبين، فاجتمعت الرسل عليهم الصلاة والسلام على أن روح الإنسان محدثة، مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، كما يعلم بالاضطرار من دينهم، أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله تعالى وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له.

وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها، وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة، فزعم أنها قديمة غير مخلوقة، واحتج لذلك أنها من أمر الله، وأمر الله غير مخلوق، وبأن الله أضافها إليه، كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده، وتوقف آخرون، فقالوا: لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة.

وقد أخبرنا نبينا ﷺ أنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم، وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، فإن صعق غير الأنبياء موت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق، ولذلك قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «**فأكون أول من يفيق**» فنبينا ﷺ أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس، إلا موسى فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته، أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقًا؟ لأنه حوسب بصعقة يوم الطور، وهذه فضيلة عظيمة لموسى عليه السلام ولا يلزم من فضيلة واحدة، فضيلة موسى عليه السلام على نبينا مطلقًا لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمرًا كليًا. انتهى.

قال المحقق: فعلم أنها صعقة موت، وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح تموت عند النفخة الأولى، وكل من لم يذق الموت قبلها، فإنه يذوقه حينئذ، وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه الموت، فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية. والله أعلم.

تتمة

في مسائل مما نحن بصدده من أمر الروح:

الأولى: اختلف في خلق الأرواح. هل كان قبل الأجساد أو تأخر عنها؟ للناس فيها قولان، حكاها شيخ الإسلام وتلميذه المحقق.

وممن ذهب إلى تقدم خلق الأرواح على الأجساد محمد بن نصر المروزي، وأبو محمد بن حزم، واحتج من قال ذلك بحجج. وقال آخرون: بل خلقت الأجساد قبل الأرواح، واحتجوا بحجج وذكرها.

ثم قال: والحاصل أن الذي ذهب إليه ابن القيم تبعًا لشيخه وجموع أن خلق الأجساد مقدم على خلق الأرواح، والله أعلم.

فائدتان

الأولى: روى الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**أخذ الله عز وجل الميثاق من ظهر آدم -يعني عرقه- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا قال: ألست بربكم؟. قالوا: بلى شهدنا**»

قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه: «مثير الغرام» هذا الحديث يدل على أن ذلك المكان أول وطن، والنفس أبدًا تنازع إلى الوطن الأول.

الثانية: قال أيضًا في الكتاب المذكور إن الله عز وجل لما أخذ الميثاق كتب كتابًا على الذرية، فألقمه هذا الحجر - يعني الحجر الأسود- فهو يشهد للمؤمن بالوفاء، وعلى الكافر بالجحود. قال العلماء: ولهذه العلة يقول لامسه إيمانًا بك ووفــاء بعهــدك. اهـــ .

المسألة الثانية: من مسائل متعلقات الروح، أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة، هل في السماء أو في الأرض؟ وهل هي في الجنة أو النار أم لا؟

فهذه من المسائل العظام، وهي إنما تتلقى من السمع فقط، ومع ذلك فقد اختلف فيها أقوال العلماء، وتباينت في محالها آراء الفضلاء.

ثم ذكر المصنف -رحمه الله تعالى- ما قيل في ذلك، ثم قال: قال الإمام المحقق فإن قيل قد ذكرتم أقوال الناس في مستقر الأرواح ومأخذهم، فما هو الراجح من هذه الأقوال، حتى يعتقد؟

أجاب رحمه الله تعالى: بأن الأرواح متفاوتة في مستقرها، في البرزخ أعظم تفاوت.

فمنها: أرواح في عليين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم، كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء.

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة، حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره، كما في مسند الإمام أحمد عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله، ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولى قال: «**إلا الدين سارني به جبريل آنفًا**».

ومنهم: من يكون محبوسًا على باب الجنة. كما في حديث آخر «**رأيت صاحبكم محبوسًا على باب الجنة**».

ومنهم: من يكون محبوسًا في قبره لحديث صاحب الشملة التي غلبها ثم استشهد فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلبها لتشتمل عليه نارًا في قبره**».

ومنهم: من يكون مقره باب الجنة، كما في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «**الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية**» رواه الإمام أحمد، وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب ﷺ

حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء.

ومنهم: من يكون محبوسًا في الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى، فإنها كانت روحًا سفلية أرضية. فإن الأنفس الأرضية لا تجامع السماوية، كما لا تجامعها في الدنيا، والنفس التي لم تكتب في الدنيا معرفة ربها لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك، كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله تعالى وذكره، والتقرب إليه والأنس به، تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها، فالمرء مع من أحب في البرزخ، ويوم المعاد. كما في حديث «**ويجعل روحه -يعني المؤمن- مع النسيم الطيب**» أي الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخدانها وأصحاب عملها.

ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم وتلقم الحجارة، فليس للأرواح شقيها وسعيدها مستقر واحد، بل روح في أعلى عليين، وروح أرضية سفلية لا تصعد من الأرض.

ومن تأمل السنن والآثار عرف صحة ذلك، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأنًا غير شأن البدن، وأنها في كونها في الجنة فهي في السماء، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالا، وصعودًا وهبوطًا، وتنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم، وألم وعذاب، أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم، والعذاب والمرض، والحسرة. وهناك اللذة والنعيم والإطلاق.

ثم قال: وما أشبه حالها بهذا البدن، بحال البدن في بطن أمه، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار، فلهذه الأنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها.

الدار الأولى: بطن أمه، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.

الدار الثانية: هذه الدار التي نشأت فيها وألفتها، واكتسبت الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة فيها.

الدار الثالثة: دار البرزخ، وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

الدار الرابعة: دار القرار، وهي الجنة أو النار، فلا دار بعدها، والله تعالى ينقل الروح في هذه الدار طبقًا بعد طبق، حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل إليها، ولها في كل دار من هذه الدور شأن غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومحييها، ومسعدها ومشقيها، وبالله التوفيق.

المسألة الثالثة: هل تتلاقى أرواح الموتى وتتزاور وتتذاكر، وتتلاقى أرواح الأحياء والأموات أيضًا؟ وهذا يعلم مما مر من حيث الجملة؛ لأن الأرواح قسمان: معذبة، ومنعمة. فالمعذبة: في شغل شاغل لها بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي، وأما الأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة، فهذه تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا ما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح مع رفيقها الذي على مثل عملها، وروح نبينا ﷺ في الرفيق الأعلى، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

قال المحقق: وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاث. وقد تواترت المرائي بتلاقي الأرواح بعضها مع بعض.

قال الإمام عبد الله بن المبارك: رأيت سفيان الثوري في المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: لقيت محمدًا ﷺ وحزبه.

وقد جاءت سنة صحيحة بتلاقي الأرواح وتعارفها، فروى ابن أبي الدنيا قال: لما مات بشر بن البراء بن معرور، وَجَدَتْ عليه أم بشر وجدًا شديدًا.

فقالت: يا رسول الله، إنه لا يزال الهالك يهلك من بني سلمة، فهل يتعارف الموتى؟ فأرسل إلى بشر السلام، فقال رسول الله ﷺ «**نعم والذي نفسي بيده يا أم**

بشر، إنهم ليتعارفون كما تتعارف الطير في رؤوس الشجر» فكان لا يهلك هالك من بني سلمة إلا جاءته أم بشر، فقالت: يا فلان عليك السلام: فيقول: وعليك. فتقول: اقرأ على بشر السلام.

وعن عبيدة بن عمير قال: أهل القبور يتوكفون الأخبار، فإذا أتاهم الميت فقالوا: ما فعل فلان؟ فيقول: صالح، ما فعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم؟ أما قدم عليكم؟ فيقولون: لا، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، سلك به غير سبيلنا.

وقال عبيد بن عمير أيضًا: إذا مات الميت تلقته الأرواح يستخبرونه كما يستخبر الراكب، ما فعل فلان؟ ما فعل فلان؟ فإذا قيل توفي ولم يأتهم، قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية.

وقال سعيد بن المسيب: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله، كما يتلقى البشير في الدنيا، فيقال انظروا أخاكم حتى يستريح، فإنه كان في كرب شديد، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ وماذا فعلت فلانة؟ وهل تزوجت فلانة؟ فإذا سألوه عن رجل قد مات قبله، قال: إنه قد مات قبلي، وقالوا: إن لله وإنا إليه راجعون، ذهب إلى أمه الهاوية، فبئست الأم وبئست المربية**». رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط. وقال «**إن أعمالكم ترد على أقاربكم وعشائركم من أهل الآخرة، فإن كان خيرًا فرحوا واستبشروا، وقالوا: اللهم هذا فضلك ورحمتك، فأتم نعمتك عليه وأمنه عليها، ويعرض عليهم عمل المسيء فيقولون: اللهم ألهمه عملاً صالحًا ترض به وتقربه إليك**».

وأخرج الإمام أحمد والحكيم الترمذي في نوادره الأصول عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «**إن روحي المؤمنين لتلتقيان على مسيرة يوم، وما رأى أحدهما صاحبه قط**».

وذكر الحافظ ابن منده بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لقي عمر

ابن الخطاب علي بن أبي طالب ﷺ، فقال له: يا أبا الحسن ربما شهدت وغبنا، وربما شهدنا وغبت، ثلاثاً أسألك عنهن، فهل عندك منهن علم؟ فقال علي: وما هن؟ قال: الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيرًا، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شرًا، فقال علي: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الأرواح جنود مجندة، تلتقي في الهواء فتشام فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**» فقال عمر «**واحدة**» قال عمر: والرجل يحدث الحديث إذ نسيه فبينما هو قد نسيه إذ ذكره؟ فقال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما في القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينا القمر يضيء إذ تخللته سحابة فأظلم إذا انجلت فأضاء وبينا القلب يتحدث إذ تخللته سحابة فنسي إذا انجلت عنه فيذكر" قال عمر: اثنان، والرجل يرى الرؤيا، فمنها ما يصدق، ومنها ما يكذب، فقال: نعم، سمعت رسول الله يقول: «ما من عبد ينام يمتلئ نومًا إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق، والذي يستيقظ دون العرش فهي التي تكذب**»»، فقال عمر ﷺ: ثلاث كنت في طلبهن، فالحمد لله الذي أصبتهن قبل الموت».

فكل ما عن سيد الخلق ورد   من أمر هذا الباب لا يرد

«فكلما» أي شيء أو الذي «**عن سيد الخلق**» ورسول الله ﷺ الحق نبينا محمد رسول الله ﷺ.

قال في المطلع: السيد الذي يفوق في الخبر قومه.

وقيل: التقي وقيل: الحليم. وقيل: الذي لا يغلبه غضبه، وجميع ذلك في نبينا ﷺ، وقال في القاموس: سيد القوم أجلهم، وهو ﷺ أجل خلق الله، وأعظم خلق الله، وأكرم خلق الله، وأكمل خلق الله ﷺ (ورد) بالأسانيد المقبولة ودونه أهل العلم في الكتب المنقولة المشهورة (من أمر) أي من أمور «هذا الباب» الذي مناطه السمع من الكتاب والسنة وإجماع السلف، فكل ذلك (حق) يجب اعتقاده والإيمان به؛ لأنه صحت به النقول، ولم تره العقول، وإن عجزت العقول عن إدراكه، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأتي بمحارات العقول، لا بمحلاتها، والفرق بينهما بيِّن لا

يخفى على ذي تبصر.

(لا يرد) من ذلك شيء لثبوته عن المعصوم ﷺ فمن تصدى لرد شيء من هذا الباب، فقد أخطأ الصواب، وضل وخاب، فإن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، جعلهم الله وسائط بينه، وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم، وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعهم بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

فالأصل الأول: إثبات التوحيد والصفات والقدر، وذكر أيام الله، في أوليائه وأعدائه، هي القصص التي قصها الله تعالى على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار والثواب، والعقاب.

قال شيخ الإسلام في قاعدة له في وجوب الاعتصام بالرسالة: على هذه الأحوال الثلاثة، مدار الخلق والأمر والسعادة والفلاح، موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان يدرك وجه الضرورة إليها، من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب، ومن يداويه ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض، وتنزيل الدواء عليه، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير، من حاجة المريض إلى الطبيب، فإن آخر ما يعذب بعدم الطبيب موت الأبدان.

وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا ترجى الحياة معه أبدًا. وشقي شقاوة لا سعادة معها أبدًا، فلا فلاح إلا باتباع الرسول ﷺ والإيمان بما جاء به ﷺ ومن جملة ما ورد عن سيد الخلق نبينا محمد ﷺ، وأنه حق لا يرد أشراط الساعة وعلاماتها.

فصل
في أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ومجيئها

قال الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ وقال: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ [محمد: ١٨] أي أماراتها وعلاماتها واحدها شرط.

قال الإمام البغوي: وكان نبينا ﷺ من أشراط الساعة والآيات في ذلك كثيرة، وأما الأحاديث فلا تكاد تحصى فإن قيل: كيف يوصف بالاقتراب ما قد مضى قبل وقوعه ألف ومائة ونيف وسبعون عامًا؟.

فالجواب: أن الأجل إذا مضى أكثره، وبقي أقله، حسن أن يقال فيه: اقترب الأجل، ولا ريب أن أجل الدنيا قد مضى أكثره، وبقي أقله، ولقرب قيام الساعة عنده تعالى جعلها كغد الذي بعد يومك فقال: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ وروى الترمذي وصححه من حديث أنس مرفوعًا: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وأشار بالسبابة والوسطى، فأفضل إحداهما على الأخرى.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ أشار بإصبعه هكذا بالوسطى، والتي تلي الإبهام، وقال: «**بعثت والساعة كهاتين**».

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا «**إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس**»، ولما كان أمر الساعة شديدًا كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشراطها وأماراتها، وأخبر عما بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة، ونبه أمته وحذرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة.

ثم اعلم أن وقت مجيء الساعة مما انفرد الله بعلمه، وإنما أخفاه؛ لأنه أصلح للعباد لئلا يتباطؤا عن التأهب والاستعداد، كما إن إخفاء وقت الموت أصلح لهم وأنفع، وقد انتدب جماعة من العلماء على تعيين قربها ومجيئها، واستدلوا بأحاديث

غير صحيحة، وما صح منها فدلالته غير صريحة.

وذكر الحافظ جلال الدين السيوطي ذلك في جزء له سماه «الكشف» وذكر هو تقريبًا: أنها تقوم على رأس خمسمائة بعد الألف أو أزيد.

قال الشيخ العلامة مرعي في «بهجة الناظرين»: وهذا أيضًا لا يقوم عليه برهان.

ثم اعلم أن أشراط الساعة وأماراتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام.

قسم ظهر وانقضى وهي الأمارات البعيدة.

وقسم ظهر ولم ينقض، بل لا يزال في ازدياد حتى إذا بلغ الغاية ظهر.

والقسم الثالث: وهي الأمارات القريبة الكبيرة التي تعقبها الساعة، فإنها تتتابع كنظام خرزات انقطع سلكها.

فالأولى التي ظهرت ومضت:

منها: بعثة النبي ﷺ وموته، وفتح بيت المقدس. وقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

ومنها: وقعة الجمل وصفين. فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة**».

ومنها؟ واقعة النهروان: أي الخوارج، وفي الخوارج أحاديث كثيرة جدًا في الصحيحين وغيرهما.

ومنها: نـــزول أمير المؤمنين وخاتمة الخلفاء الراشدين، سبط رسول رب العالمين سيدنا الإمام أبي محمد الحسن بن علي، وأخي الحسين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وقد قال النبي ﷺ: «**إن ابني هذا سيد وسيصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين**».

ومنها: ملك بني أمية وما جرى على أهل البيت في أيامهم من الأذية، كقتل الحسين بعد ما سم الحسن، ووقعة الحرة وما جرى فيها من المحن، وقتل ابن الزبير ورمي الكعبة بالمنجنيق، وما جرى في ذلك بما لا يحسن ولا يليق.

ومنها: ملك بني العباس، وما جرى في أيامهم من المحن والبأس.

ومنها: نار الحجاز التي أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى.

ومنها[1]: ظهور الروافض واستبداد الرافضة بالملك وإظهار الطعن، واللعن على السلف الصالح من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. وقد أخرج الإمام أحمد وأبو يعلى والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا «**يكون في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة، يرفضون الإسلام، فإذا رأيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون**» وبلفظ الطبراني بإسناد حسن عنه، كنت عند النبي ﷺ وعنده علي، فقال النبي ﷺ: «**سيكون من أمتي قوم ينتحلون حب أهل البيت لهم نبز يسمون الرافضة فاقتلوهم فإنهم مشركون**».

ومنها: خروج كذابين دجالين كل منهم يدعي أنه نبي.

ومنها: زوال ملك العرب، رواه الترمذي.

ومنها: كثرة المال، رواه الشيخان وغيرهما.

ومنها: كثرة الزلازل والمسخ والقذف، وغير ذلك مما أخبر عنه ﷺ أنه من أمارات الساعة فظهر ومضى وانقضى.

الثانية: الأمارات المتوسطة وهي التي ظهرت ولم تنقض بل تزيد وتكثر، وهي كثيرة جدًا. منها قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن**

---

(١) يفصل عبد القاهر البغدادي الحديث عن فرق الشيعة فيذكر أن الروافض من السبئية: فهم أظهروا بدعتهم في زمان علي رضي الله عنه، فقال بعضهم لعلي أنت الإله، فأحرق علي قومًا منهم، ونفي ابن سبأ إلى ساباط المدائن، وهذه الفرقة ليست من فرق أمة الإسلام لتسميتهم عليًا إلهاً.

ثم افترقت الرافضة- بعد زمان علي رضي الله عنه- أربعة أصناف: زيدية وإمامية، وكيسانية وغلاة وافترقت الزيدية فرقاً، والإمامية فرقاً، كل فرقة منها تكفر سائرها، وجميع فرق الغلاة منهم خارجون عن فرق الإسلام، فأما فرق الزيدية وفرق الإمامية فمعدودون في فر ق الأمة)

وقد علق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد محقق كتاب (الفَرْق بين الفِرَق) علي البغدادي بقوله: (جعل المؤلف فرقة الزيدية من الرافضة، مع أن الزيدية أتباع زيد بن علي الباقين على اتباعه.. والرافضة الذين كانوا معه ثم تركوه، لأنهم طلبوا إليه أن يتبرأ من الشيخين- رضي الله عنهما- فقال: لقد كانا وزيري جدي فلا أتبرأ منهما، فرفضوه، وتفرقوا عنه، والزيدية من الشيعة .. ص٢١ كتاب (الفَرْق بين الفِرَق) لعبد القاهر البغدادي.

لكع» رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث حذيفة ﷺ، واللكع العبد الأحمق واللئيم، والمعنى لا تقوم الساعة حتى يكون اللئام والحمقى ونحوهم، رؤساء الناس.

ومنها: قوله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان الصابر على دينه كالقابض على الجمر**» رواه الترمذي عن أنس، وقوله ﷺ «**يكون في آخر الزمان عباد جهال، وقراء فسقة**».

وفي لفظ «**فساق**» رواه أبو نعيم، والحاكم عن أنس.

ومنها: أن يرى الهلال ساعة يطلع، فيقال لليلتين لانتفاخ الأهلة -بالخاء المعجمة- أي عظمها، وروي بالجيم.

ومنها: ما أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أنس ﷺ: من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة، «**إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الرباء، واستحلوا الكذب، واستخفوا بالدماء، واستعلوا البناء، وباعوا الدين بالدنيا، وتقطعت الأرحام، ويكون الحلم ضعفًا، والكذب صدقًا، والحرير لباسًا، وظهر الجور، وكثر الطلاق، وموت الفجاءة، وائتمن الخائن، وخون الأمين، وصدق الكذاب، وكثر القذف، كان المطر قيظًا والولد غيظًا، وفاض اللئام فيضًا، وغاض الكريم غيضًا، وكان الأمراء والوزراء كذبة، والأمناء خونة، والعرفاء ظلمة، والقراء فسقة، إذ ألبسوا مسوك الضأن، قلوبهم أنتن من الجيفة، وأمر من الصبر: يغشيهم الله فتنة، يتهاوكون فيها تهاوك اليهود والظلمة، وتظهر الصفراء وتطلب البيضاء يعني الذهب والفضة -وتكثر الخطباء- ويقل الأمر بالمعروف، ومليت المصاحف، وصورت المساجد وطولت المنابر، وخربت القلوب، وشربت الخمور، وعطلت الحدود، وولدت الأمة ربتها، وترى الحفاة العراة صاروا ملوكًا، وشاركت المرأة زوجها في التجارة، وتشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، وحلف بغير الله، وشهد المرء من غير أن يستشهد، وسلم للمعرفة، وتفقه لغير الله، وطلبت الدنيا بعمل الآخرة، واتخذ المغنم دولا - بضم الدال المهملة وفتح الواو - ما يتداول من المال، إذا اختص الأغنياء، وأرباب المناصب بأموال**

الفيء ومنعوها مستحقيها كما في النهاية، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وكان زعيم القوم أرذلهم، وعق الرجل أباه، وجفى أمه، وبر صديقه، وأطاع امرأته وعلت أصوات الفسقة في المساجد، واتخذت القينات والمعازف، وشربت الخمور في الطرق، واتخذ الظلم فخرًا، وبيع الحكم وكثرت الشرط، واتخذ القرآن مزامير وجلود السباع صفاقًا، أي بأن تجعل على السرج كما يفعله أمراء زماننا، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وخسفًا ومسخًا وقذفًا».

وآيات وأخبار كثيرة جدًا ذكرت منها طرفًا صالحًا في كتابي: البحور الزاخرة في علوم الآخرة والأشراط والأمارات.

والثالثة: العلامات العظام والأشراط الجسام، التي تعقبها الساعة، وهي المقصود في النظم وإليه الإشارة بقوله:

وما أتى في النص من أشراط ... فكله حق بلا شطاط

(وما) أي ومما ورد عن سيد الخلق، وهو حق يجب اعتقاده ولا يسوغ رده (أتى) أي ورد (في النص) القرآني أو الحديث النبوي «من أشراط» الساعة بأقسامها الثلاثة مما ذكرنا، ومما لم نذكر.

والمراد بالساعة: يوم القيامة، وسميت الساعة لقربها أو لأنها تأتي بغتة في ساعة، أو لأن بعث الموتى من قبورهم أسرع من اللمحة، أو لأن فصل القضاء في ذلك اليوم في قدر ساعة.

ويروى عن علي ﷺ أنه سئل عن محاسبة الخلق فقال: كما يرزقهم في غداة واحدة كذلك يحاسبهم في ساعة واحدة «فكله» أي الذي أتى في النص من أشراط الساعة، وفي نسخ «فكلها» أي الأشراط (حق) واقع ويقين ليس له مدافع (بلا شطاط) كسحاب وكتاب أي من غير طول وبعد، يقال: رجل شاط بين الشطاط بالكسر، هو البعد ما بين الطرفين وقرئ «ولا تشطط ولا تشاطط»، أي لا تبعد عن الحق، والمعنى أن الذي جاء في النص من أشراط الساعة حق كله، لا بعد فيه، ولا

عقل ينافيه.

ثم أخذ في تعداد تلك الأشراط فقال:

منها الإمام الخاتم الفصيح محمد المهدي والمسيح

(منها) أي من أشراط الساعة أي من العلامات العظمى وهي أولها أن يظهر «**الإمام**» المقتدى بأقواله وأفعاله (الخاتم) للأئمة فلا إمام بعده، كما أن النبي ﷺ هو الخاتم للنبوة والرسالة، فلا نبي ولا رسول بعده (الفصيح) اللسان؛ لأنه من صميم العرب أهل الفصاحة والبلاغة.

والفصاحة في اصطلاح أهل المعاني والبيان خلوص الكلام من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد من فصاحة مفرداته، والفصاحة في المفرد خلوصه عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس، والفصاحة في المتكلم ملكة يقتدر معها على التعبير بلفظ فصيح، والبلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، وفي المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ.

وقوله (محمد المهدي) هذا اسمه وأشهر أوصافه، فأما اسمه فمحمد، جاء ذلك في عدة أخبار، وفي بعضها أحمد واسم أبيه عبد الله، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي**» رواه أبو نعيم من حديث أبي هريرة، ولفظه أنه ﷺ قال: «**لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي الرجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملؤها قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا**»، وأما تسميته ووصفه بالمهدي فقد ثبت له هذه الصفة في عدة أخبار، قال أبو عمرو الداني: «**إنما سمي المهدي، لأنه يهدي إلى جبل من جبال الشام، يستخرج منها أسفار التوارة يحاج بها اليهود فيسلم على يده جماعة منهم، وأما لقبه: فالجابر؛ لأنه يجبر قلوب أمة محمد ﷺ ولأنه يجبر أي يقهر الجبارين والظالمين ويقصمهم، وأما كنيته فأبو عبد الله، وأما نسبه فمن أهل بيت رسول الله ﷺ من ولد فاطمة البتول ابنة النبي ﷺ ورضي عنها وعن أولادها من ولد الحسن وللحسين فيه ولادة أيضًا**».

فوائد

منها: في حليته وصفته، قال ابن عباس رضي الله عنهما المهدي: اسمه محمد بن عبد الله، وهو رجل ربعة مشرب بحمرة، يفرج الله به عن هذه الأمة كل كرب، ويصرف بعدله كل جور.

ومن حديث حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي رجل من ولدي، وجهه كالكوكب الدري، اللون لون عربي، والجسم جسم إسرائيلي، يملأ الأرض عدلا، كما ملئت جورًا يرضى في خلافته أهل الأرض، وأهل السماء والطير في الجو يملك عشرين سنة» أخرجه أبو نعيم والطبراني.

وأخرج أبو داود والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت ظلمًا وجورًا، يملك سبع سنين**».

وأخرج أبو نعيم عن طاوس، قال: علامة المهدي أن يكون شديدًا على العمال، جوادًا بالمال، رحيمًا بالمساكين ورأيتني قد وصفته في كتابي «البحور الزاخرة»: آدم أي أسمر، ضرب من الرجال، أي خفيف اللحم، ممشوق مستدق ربعة، لا بالطويل ولا بالقصير، أجلى الجبهة: أي خفيف شعر النـــزعتين من الصدغين، وهو الذي انحسر الشعر عن جبهته، أقنى الأنف: أي طويلة مع دقة أرنبته، أشم: أي رفيع العرنين، أزج: أي حاجبه فيه تقويس مع طول في طرفه وامتداده، أبلج: أكحل العينين واسع العين -والكحل بفتحتين- سواد في أجفان العين خلقة من غير اكتحال، براق الثنايا: أي لثناياه بريق ولمعان، أفرقهما: أي ليست متلاصقة. أزيل الفخذين: أي منفرج الفخذين متباعدهما، وفي رواية «**في لسانه ثقل، وإذا أبطأ عليه ضرب فخذه الأيسر بيده اليمنى، ابن أربعين سنة**».

وفي رواية: «**ما بين ثلاثين إلى أربعين، خاشع لله خشوع النسر بجناحيه، عليه عباءاتان قطوانيتان**».

قال في النهاية: هي عباءة بيضاء قصيرة الحمل، والنون زائدة.

الفائدة الثانية في سيرته

قال أهل العلم: يعمل بسيرة النبي ﷺ لا يوقظ نائمًا ويقاتل على السنة، لا يترك سنة إلا أقامها، ولا بدعة إلا رفعها، يقوم بالدين آخر الزمان، كما قام به النبي ﷺ أوله، يملك الدنيا كلها كما ملك ذو القرنين، وسليمان بن داود عليهما السلام، يكسر الصليب ويقتل الخنـــزير ويرد إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجورًا، يحثو المال حثوًا ولا يعده عدًا، يقسم المال صحاحًا بالسوية، يرضى عنه ساكن السماء، وساكن الأرض، والطير في الجو، والوحش في القفر، والحيتان في البحر، يملأ قلوب أمة محمد ﷺ غنى، حتى يأمر مناديًا ينادي: ألا من له حاجة من المال: فلا يأتيه إلا رجل واحد، فيقول: أنا، فيقول: ائت السادن -أي الخازن- فقل له: المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً، فيقول له: احث حتى إذا جعله في حجره، وأبرزه ندم، فيقول: كنت أجشع. أي أحرص أمة محمد ﷺ أعجز عن وسعهم، قال: فيرده فلا يقبل منه، فيقال له: إنا لا نأخذ شيئًا أعطيناه، تنعم الأمة برها وفاجرها في زمانه، نعمة لم يسمعوا بمثلها قط، وترسل السماء عليهم مدرارًا، ولا تدخر شيئًا في قطرها، وتؤتي الأرض أكلها، لاتدخر عنهم شيئًا من بذرها، تجري على يديه الملاحم، يستخرج الكنوز، ويفتح المدائن ما بين الخافقين، يؤتى إليه بملوك الهند مغللين، ويجعل خزائنهم لبيت المقدس حليًا، يأوي إليه الناس، كما يأوي النحل إلى يعسوبه، حتى يكون الناس على مثل أمرهم الأول، يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة، يضربون وجوه مخالفيه وأدبارهم، جبرائيل على مقدمته، وميكائيل على ساقته، ترعى الشاة والذئب في زمانه بمكان واحد، ويلعب الصبيان بالحيات والعقارب، لا تضرهم شيئًا، ويزرع الإنسان مدًا فيخرج له سبعمائة مد، ويرفع الربا والزنا، وشرب الخمر، وتطول الأعمار، تؤدى الأمانة، وتهلك الأشرار ولا يبقى من يبغض آل محمد ﷺ، محبوب -يعني المهدي- في الخلائق يطفئ الله به الفتنة العمياء، وتأمن الأرض حتى إن المرأة تحج في خمس نسوة ما معهن رجل، ولا يخفن شيئًا إلا الله تعالى، مكتوب في شعائر الأنبياء: ما في

حكمه ظلم ولا عيب.

الثالثة: في علامات ظهوره.

منها كسوف الشمس والقمر، ونجم الذنب والظلمة، وسماع الصوت برمضان، وتحارب القبائل بذي القعدة، وظهور الخسف والفتن، ومعه قميص رسول الله ﷺ وسيفه، ورايته من مرط مخملة معلمة سوداء فيها حجر، لم تنشر منذ توفي رسول الله ﷺ ولا تنشر حتى يخرج المهدي، مكتوب على رأسها «البيعة لله» كذا في الإشاعة للعلامة السيد محمد البرزنجي المدني، ويغرس قضيبًا يابسًا في أرض يابسة، فيخضر ويورق،ويطلب منه آية فيؤمي إلى طير في الهواء بيده، فيسقط على يده، وينادي مناد من السماء أيها الناس إن الله قطع عنكم الجبارين والمنافقين وأشياعهم، وولاكم خير أمة محمد ﷺ فألحقوه بمكة، فإنه المهدي واسمه محمد بن عبد الله،وتخرج الأرض أفلاذ كبدها، مثل الأسطوانات من الذهب، ويخرج كنـــز الكعبة المدفون فيها، فيقسم في سبيل الله» رواه أبو نعيم عن علي رضي الله تعالى عنه ويستخرج تابوت السكينة من غار أنطاكية، أو من بحيرة طبرية، فيوضع بين يديه بيت المقدس، فإذا نظر إليه اليهود أسلموا إلا قليلا منهم، وتأتيه الرايات السود من خراسان، فيرسلون إليه البيعة وتنشق الفرات فتحسر عن جبل من ذهب.

وذكروا: أنه ينكسف القمر أول ليلة من رمضان، والشمس ليلة النصف، ونظر في هذا الشيخ مرعي بأن العادة انكساف القمر الليالي الأبدار، والشمس أيام الأسرار، ولكن من الممكن أن يكون ذلك آية لظهوره، وفيها خرق العادة.

وقيل: إن القمر ينكسف قبل خروجه مرتين برمضان.

وقيل: ثلاث ليال متواليات.

وروى عن كعب الأحبار: يطلع نجم بالمشرق وله ذنب يضيء كما يضيء القمر، ينعطف حتى يلتقي طرفاه أو يكاد.

وفي الديلمي مرفوعًا: يكون هدة في رمضان، توقظ النائم وتفزع اليقظان.

ومن وجه آخر: يكون صوت في رمضان في نصف الشهر، يصعق منه سبعون

ألفًا، ويعمى مثلها، ويخرس مثلها، ويصم مثلها، وينفتق من الأبكار مثلها.

ومنها: خسف قرية ببلاد الشام، يقال لها جرستا.

الرابعة: في الإشارة إلى بعض الفتن قبل خروجه، وخروج خوارج قبل ذلك.

منها أنه يحسر الفرات عن جبل من ذهب، كما تقدم، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، واجتمع عليه ثلاثة كلهم ابن خليفة، فيقتتلون عنده، ثم لا يصير إلى أحد منهم، فيقول كل واحد: والله لئن تركت الناس يأخذون منه ليذهبن كله، فيقتتلون عليه حتى يقتل من كل مائة تسع وتسعون.

وفي رواية تسعة أعشارهم، وفي رواية: من كل تسعة سبعة، فيقول كل رجل: لعلي أنا أنجو.

وقد قال النبي ﷺ: «**من حضره فلا يأخذ منه شيئًا**» وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبًا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله**» رواه مسلم في صحيحه، ورواه البخاري في معناه وتمام الحديث في مسلم «**وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن ويكثر الهرج**» - وهو القتل- الحديث.

ومن أقوى علامات المهدي: خروج من يتقدمه من الخوارج: السفياني والأبقع والأصهب والأعرج والكندي.

أما السفياني فاسمه عروة، واسم أبيه محمد، وكنيته أبو عتبة، قال علي رضي الله عنه: «**السفياني من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفيان رجل ضخم الهامة بوجهه أثر جدري، بعينه نكتة بيضاء يخرج من ناحية دمشق، وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان، ويخرج إليه رجل من أهل بيتي في الحرم، فيبلغ السفياني فيبعث إليه جندًا من جنده، فيهزمهم فيسير إليه السفياني بمن معه، حتى إذا جاوز بيداء من الأرض خسف بهم، فلا ينجو إلا المخبر عنهم**». أخرجه الحاكم في مستدركه وهذا حديث صحيح الإسناد، على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.

والأبقع: يخرج من مصر، والأصهب يخرج من بلاد الجزيرة، ثم يخرج الجرهمي من الشام، ويخرج القطحاني من بلاد اليمن، قال كعب: فبينما هؤلاء الثلاثة قد تغلبوا على مواضعهم، وإذا قد خرج السفياني من دمشق من واد يقال له وادي اليابس، يؤتى في منامه، فيقال له قم فأخرج، فيقوم فلا يجد أحدًا، ثم يؤتى الثانية، ثم الثالثة، ويقال له فيها فانظر إلى باب دارك، فينحدر إلى باب داره، فإذا سبعة أنفار أو تسعة معهم لواء فيقولون نحن أصحابك ومع رجل منهم لواء معقود، لا يرى ذلك اللواء أحد إلا انهزم، فيخرج إليه صاحب دمشق فيقاتله، فإذا نظر إلى رايته انهزم، فيدخل دمشق الشام في ثلاثمائة وستين راكبًا، وما يمضي عليه شهر حتى يجتمع عليه ثلاثون ألفًا من كلب، وهم أخواله، وعلامة خروجه خسف بقرية جرستا، ويسقط جانب مسجدها الغربي، ثم يخرج الأبقع والأصهب من جزيرة العرب ويخرج الأعرج الكندي بالمغرب، ويدوم القتال بينهم سنة، ثم يغلب.

وقد روى الإمام الحافظ ابن الإسكافي بسند مرضي إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كذب بالدجال فقد كفر ومن كذب بالمهدي فقد كفر**».

تتمة

جاء عن ابن سيرين: أن المهدي خير من أبي بكر وعمر. قد كاد يفضل الأنبياء، وجاء عنه أيضًا لا يفضل عليه أبو بكر وعمر، وإن كان أخف من الأول فليس بصحيح، فإن الأمة مجمعة على أفضليتهما عليه، وعلى جميع الصحابة خلافًا للرافضة خذلهم الله تعالى، بل غيرهما من الصحابة أفضل من المهدي، ثم يستمر سيدنا المهدي، حتى يسلم الأمر لروح الله عيسى بن مريم عليه السلام، ويصلي المهدي بعيسى عليه السلام صلاة واحدة، وهي صلاة الفجر، ثم يستمر المهدي على الصلاة خلف عيسى عليه السلام، بعد تسليمه الأمر إليه، ثم يموت المهدي ويصلي عليه روح الله عيسى، ويدفنه في بيت المقدس والله أعلم.

العلامة الثانية: خروج الدجال وما يتعلق به:

وما أدراك ما الدجال منبع الكفر والضلال، وينبوع الفتن والأوجال، قد أنذرت به الأنبياء قومها، وحذرت منه أممها، وحذر منه المصطفى وأنذر،ونعته لأمته نعوتًا لا تخفى على ذي بصيرة.

وقد قيل: إنه صاف بن صياد أو صائد، وإن مولده المدينة، كما في الحديث الوارد.

وقيل بل هو شيطان موثق في بعض الجزائر، أو أنه من أولاد شق الكاهن أو هو شق نفسه: وأن أمه كانت جنية عشقت أباه، فأولدها إياه.

وفي الترمذي: أنه يخرج من خراسان. وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعً «**يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة**».

وفي مستدرك الحاكم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا «**يخرج الدجال من يهودية أصبهان، ثم يخلق له عين والأخرى كأنها كوكب ممزوجة بدم، يشوي في الشمس سمكًا، ويتناول الطير من الجولة ثلاث صيحات يسمعها أهل المشرق والمغرب**» ومن حليته أنه شاب. وفي رواية: شيخ. وسندهما صحيح. جسم أحمر. وفي رواية أبيض أمهق. وفي رواية آدم.

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: يمكن أن تكون أدمته طافية، وقد يوصف ذلك بالحمرة؛ لأن كثيرًا من الأدم تحمر وجنتاه، جعد الرأس، قطط أعور العين اليمنى، ومعنى طافية بغير همز أنها ناتئة نتوء العنبة، وضبطه بعضهم بالهمز وأنكره بعضهم.

وجمع القاضي بين الروايات بأن عينه اليمنى طافية بغير همز، وممسوحة أي ذهب ضوءها، وهو معنى حديث أبي داود، مطموس العين ليست بناتئة ولا جحراء أي ليست بعالية ولا عميقة، كما في الرواية الأخرى، وهي الجاحظة التي كأنها كوكب، وكأنها نخاعة في حائط، وهي الخضراء كما جاء ذلك في الأحاديث.

قال: وعلى هذا فهو أعور العينين معًا، وذلك أن العور العيب، والأعور من كل شيء المعيب، وكلا عيني الدجال معيبة إحداهما بذهاب نورها والأخرى بنتوءها

وخضرتها.

قال الإمام النووي: وهذا في غاية الحسن. انتهى.

ومن أوصاف الدجال أنه قصير أفحج أي متباعد الساقين. وقيل: هو تداني ما بين صدور القدمين مع تباعدهما،وقيل: هو الذي في رجليه اعوجاج جفال الشعر - بضم الجيم- وتخفيف الفاء أي كثير، هجان -بكسر أوله، وتخفيف الجيم - أبيض أقمر أي شديد البياض- ضخم فيلماني - بفتح الفاء وسكون التحتية: أي عظيم اللحية.

قال ابن الأثير في نهايته في صفة الدجال: أقمر قيلم، وفي رواية: فيلمانيا، الفيلم: العظيم الجثة، والفيلم الأمر العظيم والياء زائدة، والفيلماني منسوب إليه بزيادة الألف والنون للمبالغة. انتهى. كأن رأسه أغصان شجرة، أي شعر رأسه كثير متفرق قائم: وفي رواية: أن رأسه من ورائه حبك، أي شعره منكس من الجعود كالماء الساكن، والرمل إذا هبت عليهما الرياح.

قال في النهاية: وهذا معنى ما مر أنه جعد قطط -مكتوب بين عينيه: كـــ. ف. ر حروفًا مقطعة، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب، ولا يقرؤها الكافر، لا يولد له ولد ولا يدخل مكة ولا المدينة، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة، وسبعون ألفًا من يهود أصبهان، عليهم التيجان، وكلهم ذوو سيف محلى.

ومن صفاته أيضًا: أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه، له: أي الدجال حمار أهلب وهو المشعر الغليظ يعني كثير الشعر، ما بين أذنيه أربعون ذراعًا، يضع خطوه عند منتهى طرفه.

وفي الحديث أن قبل خروجه بثلاث سنين، تمسك السماء ثلث قطرها، والأرض ثلث نباتها، والسنة الثانية تمسك السماء ثلثي قطرها، والأرض ثلثي نباتها، والسنة الثالثة تمسك السماء ما فيها ويهلك كل ذي ضرس وظلف، ويسير معه جبلان أحدهما فيه أشجار وأثمار وماء، وأحدهما فيه دخان، فيقول: هذه الجنة، وهذه النار، رواه الحاكم عن ابن عمر مرفوعًا.

وعن حذيفة: أنه معه جنة ونارًا ورجالاً يقتلهم ثم يحييهم، ومعه جبل ثريد ونهر ماء.

وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج، فأما إن أدرك ذلك أحد منكم، فليأت النهر الذي يراه نارًا، وليغمض ثم ليطاطئ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد، وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب**».

وأخرج مسلم من حديث النواس بن سمعان ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ «**الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال غير الدجال: أخوفني عليكم أن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة، أي أنه يخرج قصدًا وطريقًا، والتخلل: الدخول في الشيء بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا، قلنا: يا رسول الله فما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاة يوم. قالا: لا، أقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم مسارحتهم أطول ما كانت درًا، وأصبغه ضروعًاوأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول: اخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً**

ممتلئًا شابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجه يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام، فينــزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعًاكفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع رأسه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه» الحديث.

وقد ذكر جماعة من العلماء: الذي معه من صورة الجنة والنار ونحوهما، على طريق التخييل لا الحقيقة.

وقال جماعة: منهم ابن عربي بل هي على ظاهرها امتحانًا من الله تعالى لعباده، قال أي ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك عند نــزوله من السماء آخر الزمان حتى تكون الملة واحدة ملة إبراهيم عليه السلام، ونوزع بالاستدلال في هذه الآية الكريمة، وإن الضمير في قوله قبل موته ليهود، ويؤيده قراءة أُبَي رضي الله تعالى عنه قبل موتهم.

وأما السنة ففي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينــزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنــزير، ويضع الجزية» الحديث.

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال فصل لنا، فيقول: ألا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»**.

وأما الإجماع فقد أجمعت الأمة على نــزوله، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وقد انعقد الإجماع على أنه ينــزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، وليس ينــزل بشريعة مستقلة، عند نــزوله من السماوات كانت النبوة قائمة به، وهو متصف بها ويتسلم الأمر من المهدي، ويكون المهدي من أصحابه وأتباعه كسائر أصحاب المهدي، حتى أصحاب الكهف الذين هم من أتباع المهدي.

فوائد

في متعلقات السيد المسيح عليه السلام

الأولى: في حليته وسيرته، أما حليته، فعند البخاري من حديث عقيل بن خالد: أنه أحمر أجعد، عريض الصدر، وفي رواية: آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال سبط ينطف - بكسر الطاء المهملة- أي يقطر. زاد في رواية له لمة- أي بكسر اللام وتشديد الميم- أحسن ما أنت راء من اللمم، قد رجَّلها - بتشديد الجيم- أي سرحها، ولا منافاة بين الحمرة والأدمة لجواز أن تكون أدمته صافية.

وأما سيرته: فيكسر الصليب، كما تقدم، ويقتل الخنــــزير، ويقتل القرد ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، ويتحد الدين فلا يعبد إلا الله، وتترك الصدقة، أي الزكاة لعدم من يقبلها، وتظهر الكنوز في زمنه، ولا يرغب في اقتناء المال، وترفع الشحناء والتباغض، وينــــزع الله سم من كل ذي سم حتى يلعب الأولاد بالحيات والعقارب، فلا تضرهم،ويرعى الذئب مع الشاة فلا يضرها، ويملأ الأرض سلمًا، وينعدم القتال وتنبت الأرض نبتها كعهد. في الإشاعة: كالعلامة الشيخ مرعي: التحقيق الأول، ويدل له ما تقدم من قوله ﷺ «**فمن أدرك ذلك منكم فليقع بالذي يراه أنها نار، فإنه عذب بارد**» وربما فيه في رواية «**فالنار روضة خضراء**».

وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل من المؤمنين، فيلقاه المسالح مسالح الدجال -أي وهم جمع مسلحة - قوم معهم- سلاح فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الرجل الذي خرج. قال: فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء؟ فيقولون اقتلوه فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحدًا دونه، قال فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس، هذا الدجال الذي ذكره النبي ﷺ قال: فيأمر به الدجال فيشج فيقول: خذوه واشبحوه فيوسع ظهره وبطنه ضربًا، قال: فيقول أما تؤمن بي؟ قال: فيقول أنت المسيح الكذاب. قال فيؤمر به فينشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه. قال: ثم يمشي**

الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قم فيستوي قائمًا. وفي رواية: قم حيًا بإذني فيعود حيًا. فيقول له: أتؤمن بي؟ فيقول ما ازددت فيك إلا بصيرة. قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا فلا يستطيع إليه سبيلا، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس أنه قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين».

قال القرطبي في تذكرته: يقال إن هذا الخضر عليه السلام.

قال العلامة الشيخ مرعي في بهجته: ثبت أن الدجال لا يسلط على أحد بالقتل إلا على رجل واحد، يخرج إليه وهو شاب حسن، فيقول له الدجال: أتؤمن بي وبألوهيتي؟ فيقول: له: إنك اللعين الكذاب. الحديث.

فائدة

ورد أنه لم يبق من الناس بلا فتنة من الدجال إلا اثنا عشر ألف رجل وسبعة آلاف امرأة. والله المستعان.

(و) منها: أي من علامات الساعة العظمى العلامة الثالثة أن ينــزل من السماء السيد «المسيح» عيسى ابن مريم عليه السلام، ونــزوله ثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

محل نزوله:

أما **محل** نزوله: فعند المنارة البيضاء شرقي دمشق، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع رأسه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريحه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه.

وفي حديث مسلم ينــزل بين مهرودتين الحديث. قوله مهرودتين: قال في جامع الأصول رويت هذه اللفظة: بالمهملة والمعجمة. يقال للثوب إذا صبغ بالورس، ثم بالزعفران: جاء لونه مثل زهرة الحوذانة، فذلك الثوب مهرود، وقيل أراد بالمهرود: الثوب المصبوغ بالهرد، وهو صبغ أصفر. قيل: إنه الكركم، وقيل أراد في

شقتين من الهرد وهو القطع. انتهى.

والجمان حب الفضة ويكون نزول سيدنا عيسى عليه السلام لست ساعات مضت من النهار، حتى يأتي مسجد دمشق، يقعد على المنبر فيدخل المسلمون المسجد وكذا النصارى واليهود،فكلهم يرجونه حتى لو ألقى شيء لم يصب إلا رأس إنسان من كثرتهم، ويأتي مؤذن المسلمين وصاحب بوق اليهود وناقوس النصارى، فيتقرعون فلا يخرج إلا سهم المسلمين. فحينئذ يؤذن مؤذنهم ويخرج اليهود والنصارى من المسجد، ويصلي المسلمين صلاة العصر، ثم يخرج بمن معه من أهل دمشق في طلب الدجال كما سيأتي.

مقدار مدته ووفاته:

وفي حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أخرجه الطبراني وابن عساكر أنه ﷺ قال: «**ينزل عيسى ابن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة**» وعند الإمام أحمد وغيره أنه يمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه عند نبينا محمد ﷺ.

وفي المنتظم للإمام الحافظ ابن الجوزي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل عيسى ابن مريم فيتزوج ويولد له**» ذكر بعضهم ولدين أحدهما يسميه موسى والآخر محمدًا وأن أمهما من اليزد. قال: «**ويمكث خمسًا وأربعين سنة ثم يموت، ويدفن معي في قبري وأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبي بكر وعمر**».

وإلى قتل سيدنا عيسى عليه السلام للدجال الإشارة بقوله:

وإنه يقتل للدجــال ... بباب لدخل عليه جدال

(وإنه) أي المسيح عيسى عليه السلام «**يقتل**» بأمر الله له ومعونته وتأييده يقتل (للدجال) أي الكذاب. وهو اسم لهذا الشخص المشار إليه في الشرائع، وقيل: سمي دجالاً؛ لأنه يقطع ويسير في أكثر نواحيها يقال: دجل الرجل إذا فعل ذلك. وقيل: لتمويهه على الناس وتلبيسه، يقال: دجل إذا لبس وموه.

تنبيه

إنما سمي الدجال مسيحًا؛ لأن أحد عينيه ممسوحة لا يبصر بها، والأعور يسمى: مسيحًا كما في جامع الأصول، وأما تسمية سيدنا عيسى ابن مريم مسيحًا فقيل لمسح زكريا عليه السلام إياه، وقيل: لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ، وقيل: لأنه كان يمسح الأرض أي يقطعها في سياحته، وقيل: المسيح الصديق، فسيدنا عيسى مسيح الهدى، وأما الدجال فمسيح الضلالة.

تقدم أن عيسى عليه السلام يصلي بالمسلمين صلاة العصر بمسجد دمشق، ثم بمن معه من أهلها في طلب الدجال ويمشي وعليه السكينة والأرض تقبض له، وما أدرك نفسه من كافر وإلا وقتله، ويدرك حيث ما أدرك بصره، حتى يدرك بصره حصونهم وقرياتهم، إلى أن يأتي إلى بيت المقدس يجده مغلقًا قد حصره الدجال فيصادف ذلك صلاة الصبح. وفي رواية عند الإمام أحمد من حديث جابر مرفوعًا «**فيفر المسلمون – يعني من الدجال– إلى جبل الدخان بالشام فيأتيهم فيشتد حصارهم ويجهدهم جهدًا شديدًا، ثم إن الناس يشكون في أمر الدجال حين لم يقدر على قتل ذلك الرجل ثانيًا كما تقدم، ويبادر إلى بيت المقدس فإذا أطال الحصار، قال رجل إلى متى هذا الحصار؟ أخرجوا إلى هذا العدو، حتى يحكم الله بيننا إما بالشهادة وإما بالفتح، فما أنتم إلا بين إحدى الحسنيين فيتبايعون على القتال، بيعة يعلم الله أنها الصدق من أنفسهم وذلك بعد ثلاث سنين شداد، يصيب الناس فيها الجوع الشديد، وأن قوت المؤمن التهليل والتسبيح والتحميد ثم تأخذهم ظلمة لا يبصر أحدهم كفه، فينـــزل ابن مريم عليه السلام فيحسر عن أبصارهما وبين أظهرهم رجل عليه لامته، فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا عبد الله وكلمته اختاروا إحدى ثلاث: أن يبعث الله على الدجال وجنوده عذابًا جسيمًا أو أن يخسف الله بهم الأرض أو يرسل عليهم سلاحكم، ويكف سلاحهم عنكم؟ فيقولون هذا يا رسول الله أشفى لصدورنا فيومئذ ترى اليهودي العظيم الطويل الأكول الشعوب لا تقل يده سيفه من الرعب فينـــزلون إليه فيسلطون عليهم.** هكذا في هذه الرواية وفي المواهب

اللدنية للقسطلاني رحمه الله تعالى، بقي في البيت قبر يدفن فيه عيسى ابن مريم عليه السلام يكون في قبره الرابع».

قال العلامة الشيخ مرعي في بهجته: قال بعض مشائخنا: وذكر رابع القبور لا ينافي قوله ﷺ في الحديث «**المار معي في قبري**» فإنه ﷺ عبر بذلك لشدة القرب إذ هو لقربه كأنه معه أو بتقدير مضاف أي في جانب قبري لينطبق الكلام، ويتسق. فدل مجموع ما ذكرناه أن المسيح عيسى عليه السلام يموت بالمدينة المنورة. والله أعلم.

العلامة الرابعة: خروج يأجوج ومأجوج وإليها الإشارة بقوله:

وأمر يأجوج ومأجوج أثبت فإنه حق كهدم الكعبة

(وأمر يأجوج ومأجوج) يهمزان ولا يهمزان لغتان وقرئ بهما، فمن همزهما جعلها من أجيج القار، وهو ضوؤها وحرارتها، سموا بذلك لكثرتهم وشدتهم. وقيل: من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة. وقيل: هما اسمان أعجميان غير مشتقين. قال مقاتل: هو من ولد يافث بن نوح عليه السلام. فاختلط ماؤه بالتراب فأسف، فخلقوا من ذلك. وفيه نظر؛ لأن الأنبياء لا يحتلمون.

وقد روى الطبراني في حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذلك مأجوج ولا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده**» قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث. فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والصقالية، ويأجوج ومأجوج.

وقال الكسائي في العرائس: إن يافث سار إلى المشرق، فولد له هناك جوهر ونبرش وأشاره وأسقويل ومياشح. وهي أسماء أعجيمة، فمن جوهر جميع الصقالية والروم وأجناسهم، ومن مياشح جميع أصناف العجم، ومن أشاره يأجوج ومأجوج وأجناسهم.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء، لأنهم لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، يحملون السلاح فمنهم

من طوله مائة وعشرون ذراعًا أو خمسون، ومنهم من طوله وعرضه كذلك. ومنهم من يلتحف بأحد أذنيه ويفترش الأخرى.

وقال علي ﷺ: منهم من طوله شبر. ومنهم: من هو مفرط في الطول، لهم مخالب في موضع الأظفار من أيدينا وأنياب وأضراس كأضراس السباع، ولهم شعر في أجسادهم، والمراد بأمرهم خروجهم وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. فلهذا قال (أثبت) أي اعتقد ثبوته.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ [الأنبياء:٩٦].

وأما السنة: ففي صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى يوحي إلى عيسى ابن مريم** عليه السلام **بعد قتله الدجال أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرر عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه ماء، ويحصرون عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار**» الحديث.

وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، ويأجوج ومأجوج، ونـــزول عيسى ابن مريم، وثلاث خسوفات، ونار تخرج من قعر عدن أبين**» الحديث. رواه ابن ماجه من حديث حذيفة بن أسيد وهو في مسلم. وذكر فيه: حديث بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب.

وفي حديث حذيفة: ويمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس، وفي خبر علي ﷺ: لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحمام وتسافد البهائم، وعوي الذئب وشعور تقيهم الحر والبرد،وآذان عظام، أحدهما وبرة يشتون فيها والأخرى جلدة يصيفون فيها.

وقد ذكر الإمام ابن عبد البر الإجماع على أنهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وأن النبي ﷺ سئل عن يأجوج ومأجوج هل بلغتهم دعوتك؟ فقال: جرت ليلة

أسري بي فدعوتهم فلم يجيبوا، فللنص القرآني والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ مما ذكرنا ومما لم نذكر.

قال: (فإنه) أي أمر يأجوج ومأجوج -يعني خروجهم من وراء السد- على الناس (حق) ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر فوجب اعتقاده، فقد روى الجماعة إلا أبا داود من حديث زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ فزعًا محمرًا وجهه، يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت: فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**» أشار بذلك إلى أن الذي فتحوا من السد قليلاً وهم مع ذلك لم يلهمهم الله أن يقولوا عند نقبه وحفره غدًا نفتحه إن شاء الله، فإذا قالوها خرجوا.

وقد روى عبد الرازق عن أبي قتادة قال: يأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة، بني ذو القرنين السد على إحدى وعشرين، وكانت قبيلة منهم غائبة في الغزو، وهم الترك، فبقوا دون السد.

وفي حديث حذيفة لا يمرون بفيل ولا وحش، ولا طير، ولا جمل، ولا خنـــزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، وذكر بعضهم في صفتهم أن فيهم من له قرن وذنب وأنياب بارزة، يأكلون اللحوم نيئة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الجن والإنس عشرة أجزاء فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج وجزءًا سائر الناس، وقال مكحول: الأرض مسيرة مائة عام، ثمانون منها يأجوج ومأجوج، وهي أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة لا تشبه أمة الأخرى.

تتمة
في سبب خروجهم وإفسادهم وهلاكهم

اعلم أن الإسكندر بنى الردم الذي سد به على يأجوج ومأجوج، كما ذكر الله ذلك في محكم الذكر في قوله سبحانه: ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل والتخويف وإتلاف الزرع، وفعل الخبيث ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي جعلا نخرجه لك من أموالنا ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف: ٩٤]أي حاجزًا فلا يصلون إلينا ﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى ﴾ من القوة والعلم وطلب ثوابه والمال ونفوذ المقال ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي أفضل مما تعطونني أنتم ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ أي آلة أقوى بها وفعل منكم ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف: ٩٥] هو أكبر وأعظم من السد فجاءوه بذلك فحفر ما بين الصدفين - يعني الناحيتين من الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أي يتقابلان حتى بلغوا الماء، ثم قال: ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ أي القطع التي أعدها لذلك، فجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بعضها فوق بعض وجعل بينها الحطب والفحم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ﴾ فنفخوا النار حتى إذا جعل الحديد ﴿ نَارًا ﴾ أي كالنار ﴿ قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أي أصب عليه نحاسًا مذابًا، فجعلت النار تأكل الحطب وتصير النحاس مكان الحطب، حتى لزم الحديد والنحاس، وكان طوله مائة فرسخ وعرضه خمسون ذراعًا، وارتفاعه مائتي ذراع، وطول الجبلين الذي بني بينهما مائة.

فيتضرع عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى: فيرسل الله تعالى عليهم النغف - بفتح النون والغين المعجمة ففاء - وفي رواية دود كالنغف في أعناقهم وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم الواحدة نغفة، فيصبحون موتى كموت نفس واحدة - معناه - قتلى لا يسمع لهم حس- فيقول المسلمون إلا رجل يشري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟ فيتجرد رجل منهم محتسبًا نفسه قد وطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز

وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها مرعى إلا لحومهم فتشكر منه -بفتح الكاف- أي تسمى أحسن ما تشكرت، وما تشكرت عن شيء، وحتى إن دواب البحر تسمن وتشكر شكرًا من لحومهم ودمائهم، ويهبط نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم أي ريحهم من الجيف، فيؤذون الناس بنتنهم أشد من حياتهم، فيستغيثون بالله، فيبعث الله ريحًا يمانية غبراء، فتصير على الناس غمًا ودخانًا، ويقع عليهم الزكمة ويكشف ما بهم بعد ثلاثة أيام، وقد قذفت الريح جيفهم في البحر».

ولفظ صحيح مسلم «**فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله تعالى طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا دبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: انبتي ثمرك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل يعني اللبن- حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس -أي الجماعة- واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس**» الحديث. ويوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين.

قوله: كالزلفة يروى بالفاء وبالقاف، قال القاضي عياض: ضبطناه بالوجهين عن متقني شيوخنا وبهما ضبطه أهل اللغة، وفسرها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بالمرآة وقاله ثعلب وأبو زيد.

وقال بعضهم هو بالفاء الإجانة الخضراء. وقيل الصفحة. وتفسير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أظهر وبالله التوفيق.

قال النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فبينما هم يعني عيسى وأصحابه كذلك، أي في ذلك العيش الرغد، وقد هلك عدوهم إذ بعث الله تعالى ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى**

شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة» والله أعلم.

العلامة الخامسة: من العلامات العظمى، هدم الكعبة المشرفة وإليها الإشارة بقوله «كـــ» ما أن أمر يأجوج ومأجوج حق ثابت يجب اعتقاده ووقوعه فكذا يجب اعتقاد وقوع «هدم الكعبة» المعظمة وسلب حليها، وإخراج كنزها لما أخرج البخاري ومسلم والنسائي من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» وأخرج الإمام أحمد من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما نحوه وزاد «ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها، فلكأني أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته أو معوله».

وأخرج الأزرق عنه «يجيش البحر عن فئة من السودان ثم يسيلون سيل النمل حتى ينتهي إلى الكعبة فيخربونها، والذي نفسي بيده أني لكأني أنظر إلى وصفته في كتاب الله تعالى أفيحج، أصيلع أفيدع، قائمًا يهدمها بمسحاته أو معوله».

كما في حديث حذيفة مرفوعًا «كأني أنظر إلى حبشي أحمر الساقين أزرق العينين، أفطس الأنف كبير البطن، وقد صف قدميه على الكعبة هو وأصحابه ينقضونها حجرًا حجرًا ويتداولونها حتى يطرحوها في البحر» قوله: ذو السويقتين أي صاحبهما وهما تصغير الساقين، أي دقيق الساقين، وقوله: أصيلع تصغير الأصلع، وهو من ذهب شعر مقدم رأسه، والأفيدع: تصغير أفدع وهو من في يده اعوجاج: وجاء في بعض روايات الحديث أصعل أي صغير الرأس، وفي بعضها أصمع أي صغير الأذنين: وقيل: كسير الأذن والأفيحج: تصغير أفحج المتباعد الفخذين.

وأخرج الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا «يبايع الرجل بين الركن والمقام، ولن يستحل هذا البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تجيء الحبشة فيخربونه خرابًا لا يعمر بعده أبدًا، وهم الذين يستخرجون كنـــزه» فإن قلت: وقد ورد وتقدم أن المهدي هو الذي يخرج كنـــز الكعبة، وفي هذا الحديث: أن ذوي السويقتين هو الذي يخرج كنـــزها، ولعمري أنه

لسؤال وارد، واستشكال مضاد، ألم أر من تقدمني نقب عن هذا السؤال، ولا أجاب، ولعل الجواب: أن المهدي يستخرج الكنـــز المذكور ثم بعد ذلك يجتمع في خزانة الكعبة في مدة المهدي، ومدة سيدنا عيسى إلى أن يخربها ذو السويقتين، مال كثير سيما مع كثرة المال وانكباب أهل ذلك الوقت على أنواع القربات مع كثرة الحجاج، وهذا ممكن أو يكون المهدي كشفه وظهر عليه وأخذ منه عوزه، وترك باقيه، والله أعلم.

فإن قلت: تسلط هذا العدو الخبيث على هدم بيت الله المعظم ينافي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ [الحج: ٢٥] وقد حماه سبحانه من أصحاب الفيل وجيرانه حينئذ كفار مشركون، فكيف يسلط عليه الحبشة، وهو قبلة المسلمين، وهم جيرانه؟

والجواب: ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وهو أن يقال: قد أشار النبي ﷺ للجواب في الحديث في قوله: ولن يستحل هذا البيت إلا أهله، ففي زمن الفيل ما كانوا قد استحلوه فمنعه منهم، وأما الحبشة فلا يهدمونه إلا بعد استحلال أهله له مرارًا وقد استحله جيش يزيد بن معاوية بأمره، ثم الحجاج زمن عبد الملك بأمره، فسلط الله عليه القرامطة، فقتلوا من المسلمين في المطاف ما لا يحصى، وقلعوا الحجر ونقلوه لبلادهم فلما وقع استحلاله لأهله مرارًا مكن غيرهم من ذلك عقوبة لهم على أنه ليس في الآية استمرار الأمن المذكور فيه. انتهى ملخصًا.

قلت: والذي يظهر لي أن هذا العالم مشعر بالاضمحلال، كما ورد الشرع بالأمن، ورد باضمحلال هذا العالم ودماره، فأشعر أن الأمن مغيًا إلى غاية أشار الشارع إليها، فوجب تصديق الأمرين كل واحد زمنه، حسبما هو مقتضى الشرع.

فإن قلت: هل هدم الكعبة زمن عيسى عليه السلام أو بعده؟ فهذا مما اختلف فيه العلماء والظاهر أن هدم البيت بعد موت سيدنا عيسى عليه السلام وهبوب الريح التي يموت بها من في قلبه ذرة من إيمان.

وقيل: إن هدم الكعبة بعد خروج الدابة: وقيل: بعد الآيات كلها قرب قيام

الساعة حين ينقطع الحج ولا يبقى في الأرض من يقول الله، وهذا أليق بكرم الله، والذي تقتضيه الحكمة، فإن البيت قبلة الإسلام والحج إليه أحد أركان الدين ومبانيه، فالحكمة تقتضي بقاءه ببقاء الدين، فإذا جاءت الريح الطيبة، وقبضت المؤمنين فبعد ذلك يهدم البيت ويرتفع القرآن.

قال الشيخ مرعي في بهجته: جاء عن الثقاة يمكث الناس ما شاء الله في الخصب والدعة بعد هلاك يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس وخروج الدابة قال له: ثم يخرج الحبشة، وعليهم ذو السويقتين فيخربون مكة ويهدمون الكعبة ثم لا تعمر بعدها أبدًا، وهم الذين يستخرجون كنوز مصر.

قال: ثم يجتمع بقايا المسلمين فيقاتلونهم ويسبونهم حتى يباع بعباءة. فبين أن هدم الكعبة بعد الآيات كلها وإن كان لا يحل من تأمل والله أعلم.

فائدتان

الأولى: في ذكر خروج القحطاني والجهجاه والهيثم والمقعد، وهؤلاء بعد موت المهدي.

أخرج أبو الشيخ من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**ينــــزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الدجال، ويموت فيستخلفون -يعني بعد وفاة سيدنا عيسى بأمره- رجلا من بني تميم يقال له المقعد، فإذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال**» ويبدأ النقص ليوافق ما يأتي من بقايا الدين مدة مديدة بعد عيسى عليه السلام.

والظاهر أن هذا التميمي الملقب بالمقعد، هو شعيب بن صالح أحد الأمراء والوزراء للمهدي، بل هو أحد الممهدين، والظاهر أنه يبقى أميرًا في نواحي الشرق ثم يستدعى عليه السلام بعد وفاة المهدي عند خروج ذي السويقتين على مكة ونواحيها فيقتلهم ويسبهم حتى يباع الحبشي بالعباءة، ثم عند وفاة المسيح يوصى له بالأمر لما يرى فيه من الكفاءة والقيام بأعباء الدين.

ولم أر هذا التحرير لغيري فإن لم يكن شعيب فهو أحد الأمراء أو الذي

سيتولى إمارة الشرق بعد شعيب إن كان قد مات، ويلقب هذا بالمقعد.

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا «**لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك الناس رجل يقال له الجهجاه**».

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عنه مرفوعًا «**لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاة**»

وأخرج نعيم بن حماد عن سليمان بن عيسى قال: بلغني أن المهدي يمكث أربعة عشر سنة ببيت المقدس، ثم يموت، ثم يكون من بعده رجل من قوم تبع، يقال له المنصور يعني القحطاني، يمكث ببيت المقدس إحدى وعشرين سنة.

قلت وهذا لا يلتئم أن يكون هو شعيب بن صالح التميمي؛ لأن بني تميم ليسوا من اليمن ولا من قحطان، وإن وافقه في تلقيبه بالمنصور، ثم يقتل القحطاني ثم يملك المولى يعني الجهجاه، ويمكث ثلاث سنين، ثم يقتل ثم يملك بعده الهيثم المهدي ثلاث سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام.

وهذا المهدي غير الأول، وكأنه لقب بذلك لحسن سيرته وصفاء سريرته.

والحاصل أن الواجب اعتقاده من ذلك ما دلت عليه الأخبار الصحيحة من وجود المهدي الذي يخرج الدجال وسيدنا عيسى في زمنه، ويصلي عيسى عليه السلام خلفه صلاة الفجر، وهو المراد حيث أطلق المهدي.

وأما المذكورون قبله فلم يصح فيهم شيء والذي من بعده فأمراء صالحون وهو خيرهم وأفضلهم. والمراد غير سيدنا عيسى فإنه رسول كريم من أولي العزم، وهو آية وعلامة وحده.

الثانية: جاء في الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**حجوا قبل أن لا تحجوا، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ليرفعن هذا البيت من بين أظهركم حتى لا يدري أحدكم أين مكانه بالأمس**».

وأخرج البيهقي من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا «**حجوا قبل أن لا تحجوا تقعد أعرابها على أذناب أوديتها، فلا يصل إلى الحج أحد**».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**استمتعوا بهذا البيت فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة**».

قال ابن خزيمة: قوله: «**ويرفع في الثالثة**» يريد بعد الثالثة، والله أعلم.

العلامة السادسة:

ما أشار إليه بقوله (وإن منها) أي من أشراط الساعة التي ورد النص بها (آية الدخان) كرمان وغراب، لغتان، قال العلماء: آية الدخان ثابتة بالكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [الدخان: ١٠] قال ابن عباس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم والحسن وزيد بن علي رحمهم الله تعالى: هو دخان قبل قيام الساعة، يدخل في أسماع الكفار والمنافقين، ويعتري المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ولم يأت بعد، وهو آت.

وأما السنة: فأخرج مسلم من حديث حذيفة بن أسيد ﷺ قال: «**طلع علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: الساعة يا رسول الله. قال: «إنها لن تقوم حتى يروا قبلها عشر آيات**» فذكر منها الدخان.ورواه الترمذي وابن ماجه «**وإنه يمكث في الأرض أربعين يومًا**».

وفي حديث حذيفة بن اليمان ﷺ «**إن من أشراط الساعة دخانًا يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث في الأرض أربعين يومًا، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره**» رواه الطبراني.

وقيل:إن الدخان مرو أنه الجوع الذي كان حال بين أبصار قريش وبين السماء، ففي الصحيحين عن مسروق قال: كنا جلوسًا عند عبد الله بن مسعود وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن: إن قاصًا عند أبواب كندة، يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ أنفاس الكفار ويأخذ المؤمن منها كهيئة الزكام، فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان: يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئًا فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم:

الله أعلم. فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص: ٨٦] أن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدبارًا قال: «**اللهم سبع كسبع يوسف**» وفي رواية: لما دعا قريشًا كذبوه واستعصوا عليه فقال: «**اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**» فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان من الجوع، الحديث. قال العلامة الشيخ مرعي كغيره: كلام ابن مسعود رضي الله تعالى عنه موافق لظاهر الآية، فلا دليل فيها لما ذهب إليه الجمهور، وإنما دليلهم السنة، وكأن ذلك لم يبلغ ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، حين أنكر ذلك مع أنه ورد عنه أيضًا أنه كان يقول: هما دخانان مضى واحد، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة، وأما الكافر فيشق مسامعه، فيبعث الله عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الناس. وورد ذلك من عدة طرق عن جماعة من الصحابة مرفوعًا وموقوفًا، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وتضافر هذه الأحاديث يدل على أن لذلك أصلا. والله أعلم.

العلامة السابعة: من علامات الساعة وأشراطها رفع القرآن العظيم من الصدور والسطور وإليه الإشارة بقوله: وإنه يذهب بالقرآن

(وإنه) أي الشأن والأمر (يذهب) بضم التحتية مبنيًا لما لم يسم فاعله أي يذهب الله تعالى (بالقرآن) العظيم من المصاحف والصدور، وهي من أشد معضلات الأمور، فأخرج الديلمي من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا «**يسرى على كتاب الله ليلا فيصبح الناس وليس منه آية ولا حرف في جوف إلا نسخت**».

قال في البهجة: قرر الأئمة أنه يرفع أولاً من المصاحف وذلك أنهم يبيتون فيصبحون وليس حرف مكتوب فيها، ثم يرفع من الصدور عقب ذلك لأعجل زمن حتى لا يكون شيئًا منه محفوظًا حتى يقول الحافظ للآخر وقد سأله الآخر: كنت أحفظ شيئًا نسيته لا أدري ما هو.

وفي الحديث «**أكثر من الطواف بالبيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه، وأكثروا من تلاوة القرآن قبل أن يرفع. قيل: وكيف يرفع ما في صدور الرجال، قال: يسرى عليهم ليلاً فيصبحون منه فقراء، وينسون قول لا إله إلا الله**».

وأخرج ابن ماجه بسند قوي والحاكم والبيهقي والضياء عن حذيفة ﷺ قال: يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى ما يدرى ما صيام، ولا صلاة ولا نسك، ولا صدقة، ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى منه آية ويبقى طوائف من الناس الشيخ والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها. والله أعلم.

العلامة الثامنة: من علامات الساعة وأشراطها طلوع الشمس من مغربها وأشار إليها بقوله:

طلوع شمس الأفق من دبور

(طلوع شمس الأفق) قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس ﷺ قال: حدثني رسول الله ﷺ أن الشمس والقمر والنجوم خلقهن من نور العرش.

وأخرج أبو الشيخ عن سلمان الفارسي ﷺ قال: «**خلق الله الشمس من نور عرشه وكتب في وجهها: إني أنا الله لا إله إلا أنا، رضائي كلام وغضبي كلام ورحمتي كلام وعذابي كلام، وخلق القمر من نور حجابه الذي يليه وكتب في وجهه إني أنا الله لا إله إلا أنا صنعت القمر، وخلقت الظلمات والنور: فالظلمة ضلالة والنور هدى أي أضل من شئت وأهدى من شئت،وكتب في بطنه إني أنا الله لا إله إلا أنا، خلقت الخير والشر بقدرتي وعزتي، أبتلي بهما من شئت من خلقي، والمراد بالأفق هنا ما ظهر من نواحي الفلك**».

وقول (من دبور) بفتح الدال المهملة وضم الموحدة مخففة فراء بعد الواو، جهة الغرب؛ لأنها تدابر باب الكعبة وتسمى الريح التي مهبها من جهة الغرب دبورًا.

قال العلماء رحمهم الله تعالى: طلوع الشمس من مغربها ثابت بالسنة الصحيحة

والأخبار الصريحة وبالكتاب المنـــزل على النبي المرسل قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٨] أجمع المفسرون أو جمهورهم على أن طلوع الشمس من مغربها، لم ينفعه تجديد الإيمان ولم ينفعه فعل بر من جميع الأعمال؛ لأنه فقد الإيمان الذي هو أساس لما عداه من تلك الأعمال فلا ينفعه إيمانه الحادث حينئذ، ولا ما صدر منه قبل ذلك من الإحسان، وعمل البر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب. وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من مكارم الأخلاق لأنها على غير أساس. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ ﴾ [إبراهيم: ١٨] والإيمان الحادث في ذلك الوقت ليس مقبولا حتى يكون من باب أسلم على ما سلف من الخير، فهؤلاء لا ينفعهم لا بانضمام الأفعال اللاحقة ولا بانضمام أعمالهم السابقة لفقد الأساس الذي هو الإيمان، وأما من تحقق اتصافه بالإيمان الشرعي من قبل ذلك الوقت، واستمرار إيمانه إلى طلوع الشمس من مغربها، فهو لا يخلو إما أن يكون مؤمنًا مقيمًا على المعاصي، لم يكسب في إيمانه خيرًا ومؤمنًا مخلصًا أو مؤمنًا تائبًا عن المعاصي كاسبًا في إيمانه خيرًا ما استطاع.

فالأول: ينفعه إيمانه السابق المجرد عن الأعمال لأصل النجاة، فلا يخلد في النار وإن دخلها بذنوبه، فالإيمان السابق ينفعه،وينفعه الإيمان أيضًا لأنه نور على نور، ولكن لا تنفعه التوبة عن المعاصي، ولا تقبل منه حسنة يعملها، بعد ذلك.

والثاني: ينفعه إيمانه السابق لأصل نجاته وينفعه ما قدمه من الحسنات لدرجاته وينفعه إيمانه يومئذ أيضًا لما مر. ولكن لا تنفعه توبته حينئذ من التخليط ولا حسنة يعملها بعد ذلك ما لم يكن عملها من قبل. واستمر على عملها من نحو صلاة وقراءة وذكر كان يعمله.

والثالث: ينفعه إيمانه السابق لأجل نجاته وتنفعه أعماله السابقة الصالحة لدرجاته، وينفعه إيمانه ذلك اليوم أيضًا وينفعه ما يعمله بعد ذلك من الحسنات التي سبق منه أمثالها.

وهذا التفصيل مما دلت عليه الآية الكريمة وبينته الأحاديث الواردة في تفسير الآية المذكورة من ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حيث لا ينفع نفسًا إيمانها**».

وأخرج الإمام أحمد وعبد الله بن حميد ومسلم والحاكم وابن مردويه من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدخان، ودابة الأرض، وخويصة أحدكم، وأمر العامة**» قال قتادة: خويصة أحدكم: الموت وأمر العامة: الساعة.

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- مرفوعًا «**خلق الله بابًا للتوبة -وفيه- فذلك الباب مفتوح منذ خلقه الله إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربها -إلى أن قال- فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل للعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها بعد ذلك إلا ما كان قبل ذلك، فإنه يجري لهم وعليهم بعد ذلك ما كان يجري لهم، قبل ذلك، فذلك قوله تعالى:** ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وله شواهد من الأحاديث الصحاح ويوضحه ما نقله ابن هشام في مغني اللبيب عن ابن عطية وابن الحاجب: أن الآية من حذف المعطوف أي لا ينفع نفسًا إيمانها وكسبها، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، والآية من اللف والنشر،ومفهومه أنها إذا كانت كسبت ينفعها كسبها المماثل للسابق وهو المطلوب.

ونلخص من مجموع الأحاديث المذكورة وما في معناها أن الشمس إذا طلعت من مغربها لا ينفع الإيمان المحدث في ذلك اليوم، لمن كان كافرًا أو مشركًا ولا التوبة المحدثة فيه، لمن كان مخلطًا ولا أعمال البر المحدثة فيه لمن لم يكن يعملها قبل ذلك اليوم، وأما من كان قبل ذلك مؤمنًا فإن الإيمان المجرد عن الأعمال الصالحة السابقة على ذلك اليوم ينفع صاحبه لأجل نجاته، وإيمانه المتجدد يومئذ لا ينفعه؛ لأنه نور

على نور، وإن لم تقبل توبته عن سيئاته، فإن الإيمان السابق مع التخليط ينفعه مع ما تقدم له من الأعمال الصالحة التي كان يعملها وإنما الممنوع قبول توبته عن تخليطه، وقبول ما لم يكن متصفًا به من الإيمان وأعمال البر، قبل ذلك اليوم. والضابط: أن كل بر محدث يكون السبب في إحداثه رؤية الآية ولم يسبق من صاحبه مثله لا ينفع سواء كان من الأصول أو الفروع، وكل بر ليس كذلك يكون صاحبه كان عاملاً به قبل رؤية الآية، ينفع.

وهذا التحقيق نبه على مثله الإمام العلامة ابن مفلح في الآداب الكبرى، وقد ورد في طلوع الشمس من مغربها عدة أحاديث منها ما تقدم.

ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن حذيفة ﷺ، قال: سألت رسول الله ﷺ ما آية طلوع الشمس من مغربها قال: «**تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين**»

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «**قدر ثلاث ليال**» فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون ويعملون كما كانوا ولا يرون إلا قد قامت النجوم مكانها، ثم يرقدون ثم يقومون ثم يقضون صلاتهم، والليل كأنه لم ينقض فيضطجعون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه حتى يتطاول عليهم الليل، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم، ففزع الناس وهاج بعضهم في بعض قالوا: ما هذا؟ فيفزعون إلى المساجد فإذا أصبحوا طال عليهم طلوع الشمس، فبينما هم ينظرون طلوعها من المشرق إذ هي طالعة عليهم من مغربها، فيضج الناس ضجة واحدة، حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها» قال الحليمي من الشافعية: أول الآيات الدجال ثم نــزول عيسى ثم طلوع الشمس من مغربها.

قلت: والذي يظهر والله أعلم أن أول الآيات خروج المهدي، ثم الدجال، ثم نــزول عيسى ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم هدم الكعبة، ثم الدخان، ثم ارتفاع القرآن، ثم طلوع الشمس من مغربها، في يومها أو قريب منها.

وهذا هو النسق الذي مشينا عليه والله أعلم، وأما السفياني فإنه لم يعد خروجه آية وإنما هو علامة لخروج المهدي.

العلامة التاسعة: خروج دابة الأرض وإليها الإشارة بقوله:

كذات أجياد على المشهور

(كذات) أي صاحبة (أجياد) وأجياد كما في القاموس اسم أرض بمكة أو جبل بها ويسمى جياد، بغير ألف قبل الجيم. وقوله (على) القول (المشهور) من إضافتها إلى أجياد لأنها تخرج منه، ففي حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا «**تخرج دابة الأرض من أجياد فيبلغ صدرها الركن اليماني، ولم يخرج ذنبها بعد، وهي دابة ذات قوائم**».

وعنه أيضًا أنه أراه النبي ﷺ المكان الذي تخرج منه الدابة، وفي حديث بريدة ﷺ. قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا بأرض يابسة حولها رمل، فقال ﷺ: «**تخرج الدابة من هذا الموضع**».

والحاصل: أن في المحل الذي تخرج منه الدابة أقوال أشهرها: أجياد كما أشرنا إليه.

قال الحافظ السخاوي: وخروجها آخر الزمان من مكة، أما من صدع الصفا وبه جزم غير واحد، أو من المروة أو من شعب أجياد، أو من بعض أودية تهامة، أو من وراء مكة أو مدينة قوم لوط. اهـ.

وقيل: بل أول خروجها من أقصى اليمين، وهذا أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي الطفيل عن سروعة عن النبي ﷺ قال: «**يكون للدابة ثلاث خرجات في الدهر، تخرج في أول خرجة في أقصى اليمين فينتشر ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية -يعني مكة- ثم تمكث زمانًا طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية، ثم بينما الناس في أعظم المساجد حرمة وأحبها إلى الله وأكرمها على الله -يعني المسجد الحرام- ولم يرعهم إلا وهي في ناحية المسجد ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم فيرفض الناس عنها، وتثبت عصابة من المسلمين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فتنفض عن رأسها التراب فتجلو عن وجوههم حتى كأنهم الكواكب الدرية**»

الحديث.

وقد جمع بعضهم بين الروايات بأن للدابة ثلاث خرجات ففي بعضها تخرج من مدينة قوم لوط، ويصدق عليها أنها من أقصى البادية. وفي بعضها تخرج من بعض أودية تهامة، ويصدق عليها أنها من وراء مكة، وأنها من اليمين لأن الحجاز يمانية ومن ثم قيل للكعبة يمانية، والمرة الثالثة تخرج من مكة، وهي من كبرها، وعظم جثتها وطولها يمكن أن تخرج من بين الصفا والمروة، وأجياد. فإنها تمتد مقدار ثلاثة أيام وأكثر. وحينئذ يصدق عليها أنها خرجت من المروة ومن الصفا ومن أجياد ومن المسجد، ومن البادية، التي بقرب مكة، وحدد خرقًا للعادة في صورة متباينة، على أنه ورد في رواية كما في حياة الحيوان أنه يخرج من كل بلد دابة مما هو مثبوت نوعها في الأرض فليست بواحدة، ويكون قوله: دابة اسم جنس،وورد أن خروجها ليلة جمع والناس سائرة إلى منى فينصدع الصفا، فتخرج منه، وقيل: تخرج من الحجر. وقيل من أرض الطائف، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب. فخروج الدابة المذكور ثابت في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢].

وأما السنة فكثيرة منها ما في حديث حذيفة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**دابة الأرض طولها ستون ذراعًا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب**» وفي حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا «**تخرج دابة الأرض من أجياد فيبلغ صدرها الركن اليماني ولم يخرج ذنبها بعد**» وهي دابة ذات قوائم، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها.

وروى: فلا يخرج إلا رأسها ويبلغ عنان السماء وتبلغ السحاب. وقال أبو هريرة ﷺ: فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب، وقال وهب: وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير، قال ابن جرير: رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن إبل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد،

ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرة، وذنبها ذنب تيس، وقوائمها قوائم بعيرين، كل مفصلين اثنا عشر ذراعًا بذراع آدم عليه السلام.

وقال كعب: صوتها صوت حمار. وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان، وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن ويقول هذا: يا كافر**».

قال العلماء: وتنادي بأعلى صوتها ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢] وتسم الناس المؤمن والكافر، فأما المؤمن فيرى وجهه كأنه كوكب دري ويكتب بين عينيه مؤمن، وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء ويكتب بين عينيه كافر، فلا يبقى مؤمن إلا نكتته في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء فتفشوا تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء في خاتم سليمان فتفشوا تلك النكتة، حتى يسود لها وجهه، ويتعوذ بعض الناس عنها بالصلاة فتأتيه من خلفه، فتقول: يا فلان الآن تصلي، فيقبل عليها فتسمه في وجهه، ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأسفار، يعرف المؤمن من الكافر وبالعكس، حتى إن المؤمن ليقول للكافر: يا كافر، اقض حقي والكافر يقول للمؤمن: اقض حقي، وتستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنقذها ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنقذها، ثم المغرب واليمن كذلك.

وأخرج نعيم بن حماد في الفتن والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: يلبثون -يعني الناس بعد يأجوج ومأجوج- حتى تطلع الشمس من مغربها، فجفت الأقلام وطويت الصحف، ولا يقبل لأحد توبة، ويخر إبليس، ساجدًا ينادي إلهي مرني أسجد لمن شئت، وتجتمع إليه الشياطين فتقول: يا سيدنا إلى من تفزع؟ فيقول: إنما سألت ربي أن ينظرني إلى يوم الوقت المعلوم، وقد طلعت الشمس من مغربها، فهذا يوم الوقت المعلوم؟ وتصير الشياطين ظاهرة في الأرض حتى يقول

الرجل: هذا قريني الذي كان يغويني، الحمد الله الذي أخزاه ولا يزال إبليس ساجدًا باكيًا حتى تخرج الدابة فتقتله وهو ساجد.

قال العلماء في سؤال إبليس أن ينظر إلى يوم البعث مكر منه وخداع، وجهل برب العالمين، فإنه إنما حاول أن لا يذوق الموت؛ لأن يوم البعث ليس بيوم موت، وإنما هو يوم بعث ونشور وإحياء وبعثرة لما في القبور، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يقبض إذ ذاك إبليس أو غيره وإنما ذلك اليوم الجزاء، فأجابه العليم الحكيم بأنه منظر إلى يوم الوقت المعلوم وهذا أصح من قول كعب الأحبار؛ لأن إبليس ربما يذوق الموت يوم الحشر، وكما ذكر الكسائي في العرائس.

فائدة

روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن الدابة هي الجساسة المذكورة في قصة تميم الداري ﷺ، وأنها في جزيرة بحر القلزم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها الثعبان الذي كان في بئر الكعبة فاختطفه العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام، وأنه ألقاها بالحجون. وقيل: رمى بها في أجياد فالتقمتها الأرض، والله أعلم.

العاشرة: خروج النار التي تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى محشرهم، وإليها أشار بقوله:

وآخر الآيات حشر النار كما أتى في محكم الأخبار

(وآخر الآيات) العظام (حشر النار) للناس من المشرق إلى المغرب ومن اليمن إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام وهو أرض الشام «كما أتى» ذلك مصرحًا به «في محكم الأخبار» وصحيح الآثار.

فإن قلت: في قولك وآخر الآيات مصادمة للحديث الصحيح، الذي أخرجه الإمام أحمد والبخاري في صحيحه، والنسائي عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب**» الحديث.

قلت: تقدم في حديث حذيفة بن أسيد مرفوعًا «**لن تقوم الساعة حتى يرى قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ﷺ، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاث خسوفات قال: وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطارد الناس إلى محشرهم**».

وقد جمع بعض العلماء بينهما بأن آخرية خروج النار باعتبار ما ذكر معها من الآيات وأوليتها بأنها من أول الآيات، التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلا، بل يقع بانتهائها النفخ في الصور، خلاف ما ذكر معها فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من الدنيا. ذكره الحافظ السخاوي.

وذكر غيره، بأن النار ناران، إحداهما تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.

والثانية: تخرج من اليمن فتطرد الناس إلى المحشر الذي هو أرض الشام، فلعل إحدى النارين في أول الآيات والأخرى في آخرها، وحينئذ فلا حاجة إلى الجمع الذي ذكره السخاوي وإن لم يكن في علم الله إلا نار واحدة، فجمع السخاوي موجه، وعليه فالجمع بين حديث نار قبل يوم القيامة من حضرموت، فتسوق الناس، وفي لفظ: تخرج نار من قعر عدن أبين ترحل الناس إلى المحشر. وحديث: نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، فإنه يقال: إن الشام الذي هو المحشر مغرب بالنسبة إلى المشرق فيكون ابتداء خروجها قعر عدن من اليمن، فإذا خرجت انتشرت إلى المشرق، فتحشر أهله إلى الغرب الذي هو الشام، الذي هو المحشر.

ولفظة أبين بوزن أحمر اسم الملك الذي بناها. وفي النهاية: عدن أبين مدينة معروفة باليمن أضيفت إلى أبين بوزن أبيض وهو رجل من حمير عدن بها أي .أقام. انتهى.

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما: ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ﷺ، ويبقى في الأرض أشرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الله، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف.

قوله: تقذرهم نفس الله: هو من المتشابه والإيمان به واجب، كما أخبر لا كما يتوهمه البشر.

تتمة

ثبت بالسنة الصحيحة أن أهل الأرض يكفرون ويعبدون الأوثان وأنه لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس. فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**تجيء بعد موت عيسى عليه السلام ريح باردة من قبل الشام، لا تبقيي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه، حتى تقبضه فيبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيقولون: ما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور**».

فإن قلت: أليس قد ذكرت أن الدابة تقتل الشيطان.

فالجواب: أنه ليس في الحديث أن الذي يظهر لهم إبليس بل يجوز أن يكون شيطانًا آخر غير إبليس من ذريته، وورد أن الريح تأتي من قبل اليمن والجواب أنهما ريحان شامية ويمانية.

وأخرج الإمام أحمد بسند قوي عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض لا إله إلا الله**» فإن قيل: كيف هذا مع ما صح عنه ﷺ من قوله «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة، حتى يأتي أمر الله**»

فالجواب: هذا غير مصادم للحديث؛ لأن معناه أنهم لا يزالون على الحق حتى تأتيهم هذه الريح اللينة قرب القيامة فأطلق فيه بقاءهم إلى قيام الساعة مريدًا أشراطها ودونها المتناهي في القرب. وفي المستدرك الحاكم من مرفوع أبي هريرة رضي الله عنه «**وحتى تؤخذ المرأة جهارًا نهارًا تنكح وسط الطريق لا ينكر ذلك أحد**» وفي لفظ: «**حتى ينكح أحدهم أمه فيكون أمثلهم يومئذ الذي يقول لو نحيتها عن الطريق قليلاً، فذلك فيهم مثل أبي وعمر بكر فيكم**».

فكلها صحت بها الأخبار وسطرت آثارها الأخيار

(فكلها) أي أشراط الساعة المذكورة (صحت بها الأخبار) عن النبي المختار وأصحابه الأبرار صلوات الله وسلامه عليه وعليهم. ما تعاقب الليل والنهار (و) كلها قد «سطرت» أي كتبت (آثارها) مفعول سطرت أي الآثار الدالة عليها، والمتضمنة لإتيانها ومجيئها وعلاماتها المشيرة إلى اقترابها (الأخيار) فاعل سطرت وهو جمع خير، والأخيار ضد الأشرار،والمراد بهم هنا علماء الأمة من التابعين وتابعيهم وأئمة السلف ومقلديهم.

وقد روى أبو نعيم في الحلية، والخطيب في التاريخ من حديث أبي هريرة ﷺ والقضاعي من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه ﷺ قال: «**خيار أمتي علماؤها وخيار علمائها رحماؤها ألا وإن الله تعالى يغفر للعالم أربعين ذنبًا قبل أن يغفر للجاهل ذنبًا واحدًا وإن العالم الرحيم بمجيء يوم القيامة وإن نوره قد أضاء يمشي فيه ما بين المشرق والمغرب، كما يضيء الكوكب الدري**» وإسناده ضعيف.

وقد عزونا كل قول لقائله وكل حديث لناقله غالبًا لخرج من تبعته وليعلم من أنعم النظر وأمعن الفكر فيما حررته أنه زبدة ما محص المتقدمون وثمرة ما غرسه المحررون، وبالله التوفيق.

فصل

في أمر المعاد

اعلم أن المعاد الجسماني حق واقع دل عليه النقل الصحيح، فوجب الإيمان به والتصديق وهو أن يبعث الله تعالى الموتى من القبور، بأن يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٩] إلى غير ذلك من النصوص القرآنية القطعية والأحاديث الساطعة النبوية قال:

واجزم بأمر البعث والنشور والحشر جزمًا بعد نفخ الصور

(واجزم) جزم إيقان واعتقاد وعرفان (بأمر البعث) بعد الموت (والنشور) من

القبور (والحشر) لأجل الجزاء وفصل القضاء (جزمًا) مصدر مؤكد لقوله واجزم، وذلك كله واقع (بعد نفخ الصور) المراد: نفخة البعث، وحاصل ما ذكر في هذا البيت أربعة أشياء، البعث والنشور، والحشر والنفخ في الصور. أما البعث فالمراد به: المعاد الجسماني فإنه المتبادر عند الإطلاق، إذ هو الذي يجب اعتقاده،ويكفر منكره.

قال الإمام المحقق في كتابه الروح كشيخه وغيرهما: معاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.

وقال الجلال الدواني: هو بإجماع أهل الملل وبشهادة نصوص القرآن، بحيث لا يقبل التأويل كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧- ٧٩].

أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي وغيرهم، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيده، فقال: يا محمد يحيي الله هذا بعد ما أرم؟ قال: «**نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم**» فنــزلت الآيات من آخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ إلى آخر السورة، وهذا نص صريح في الحشر الجسماني يقطع عرف التأويل بالكلية.

وثم في الحديث في قوله ﷺ: «**ثم يبعث الله هذا ثم يميتك**» للترتيب الإخباري لا للترتيب الحكمي، كقولهم: بلغني ما صنعت اليوم ما صنعت أمس أعجب، أي ثم أخبرك أن ما صنعت أمس أعجب.

وأما النشور فهو يرادف البعث في المعنى، نشر الميت ينشر نشورًا، وإذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أي أحياه. وأما الحشر فهو في اللغة الجمع. والمراد به جمع أجزاء الإنسان بعد التفرقة، ثم إحياء الأبدان بعد موتها.

واعلم أنه يجب الجزم شرعًا أن الله تعالى يبعث جميع العباد ويعيدها بجميع أجزائهم الأصلية، وهي التي شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره، ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء، فإن هذا حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨] ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧] ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦] والآيات في ذلك كثيرة جدًا.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا، ففي البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: «**إنكم ملاقو الله حفاة عراة غرلا**» وفي رواية: مشاة الغرل - بضم الغين المعجمة وإسكان الراء جمع أغرل وهو الأقلف. ومثله في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: فقلت الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «**الأمر أشد من أن يهمهم ذلك**» وروي نحوه من حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها وفيه، فقالت أم سلمة فقلت يا رسول الله: واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «**شغل الناس. فقلت: ما شغلهم؟ فقال نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل**».

تنبيهان

الأول: اختلف الناس هل البعث إعادة بعد تفريق، أو إيجاد معدوم؟ قال عكرمة رحمه الله تعالى: إن الذي يغرقون في البحر وتقتسم لحومهم الحيتان، ثم تصير نخرة، ثم تمر بها الإبل فتأكلها، ثم تسير الإبل فتبعره، ثم يجيء قوم فينــــزلون فيأخذون ذلك البعر، فيوقدونه، ثم تخمد تلك النار، فتجيء الريح، فتلقي ذلك الرماد على الأرض، إذا جاءت النفخة، فإذا هم قيام ينظرون، يخرج أولئك وأهل القبور سواء.

قال العلامة الشيخ مرعي رحمه الله تعالى: قال العلماء: إن الله تعالى يجمع ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض، وما أصاب النيران منها بالحرق والمياه بالغرق، وما أبلته الشمس وما ذرأته الرياح، فإذا جمعها وأكمل كل بدن منها، ولم يبق إلا الأرواح نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور، فأرسلها بنفخة من ثقب الصور، فترجع كل روح إلى جسدها، فإذا هم قيام ينظرون.

والمشهور أن هذه الإعادة جمع متفرق والأصح: أنه إيجاد بعد عدم. نص عليه علماء السنة وهو مذهب المحققين:

الثاني: اختلفوا في إعادة الأعراض التي كانت قائمة بالأجساد في الدنيا، فمذهب الأكثرين أنها تعاد بأشخاصها التي كانت قائمة بالجسم، حال الحياة، قلت: وقد نقل الإجماع، غير واحد من العلماء من آخرهم الشيخ مرعي وغيره عن أهل السنة أن الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها والله أعلم.

وأما النفخ في الصور، فالمراد به نفخة البعث والنشور.

واعلم أن النفخ في الصور ثلاث نفخات:

الأولى: نفخة الفزع: وهي التي يتغير بها هذا العالم ويفسد نظامه، وهي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] أي من رجوع ومرد وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فسر الزمخشري في كشافه المستثنى في هذه الآية بمن ثبت الله قلبه من الملائكة، وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقيل غير ذلك. وإنما يحصل الفزع لشدة ما يقع من هول تلك النفخة، فقد أخرج ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ «**أن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصًا ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر. قلت: يا رسول الله وما الصور؟ قال القرن. قلت: أي شيء هو؟ قال: عظيم إن عظم دارة فيه، فيقول: انفخ نفخة الفزع، فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله فيأمر فيمدها ويطيلها ولا يغتر، وهي التي يقول الله تعالى:** ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ **فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب، فتكون سرابًا وترتج الأرض بأهلها رجاً، فتكون كالسفينة الموقرة في البحر تضربها الأمواج، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح، وهي التي يقول الله تعالى:** ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧] **فتميل الأرض**

بالناس على ظهرها فتذهب المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربين من الفزع، حتى تأتي الأقطار، فتتلقاها الملائكة، فتضرب وجوهها، فترجع ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضًا وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣] فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض فانصدعت من قطر إلى قطر، فرأوا أمرًا عظيمًا، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم انشقت فانتشرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها، قال رسول الله ﷺ: والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك. قلت يا رسول الله: من استثنى الله تعالى في قوله ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ قال: أولئك الشهداء. وإنما يتصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند ربهم يرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه، يقول الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ١-٢]. فيمكثون في ذلك ما شاء الله» الحديث.

النفخة الثانية: نفخة الصعق، وفيها هلاك كل شيء قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨] وقد فسر الصعق بالموت. وفي الحديث المتقدم الذي رواه ابن جرير وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ثم يأمر إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فيقول ملك الموت. قد مات أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فيقول الله، وهو أعلم فمن بقي؟ فيقول: أي رب بقيت أنت الحي القيوم الذي لا يموت، وبقيت حملة العرش وبقي جبريل وميكائيل وبقيت أنا. فيقول الله تعالى: فليمت جبريل وميكائيل فيموتان ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول: رب قد مات حملة العرش فيقول، وهو أعلم: فمن بقي؟ فيقول

بقيت أنت الحي القيوم الذي لا يموت، وبقيت أنا فيقول: أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت فيموت. فإذا لم يبق إلا الواحد القهار طوى السماء والأرض كطي السجل للكتب وقال: أنا الجبار لمن الملك اليوم -ثلاث مرات- فلم يجبه أحد، ثم يقول لنفسه: لله الواحد القهار، وتبدل الأرض غير الأرض، والسموات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم لا ترى فيها عوجًا ولا أمتاً» الحديث.

وأخرج مسلم من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون**» وسيأتي إن مالم يخلق للفناء، لم يفن كالجنة وما فيها من الحور والولدان، وكذا النار وما فيها من الحيات والعقارب. والله أعلم.

النفخة الثالثة: نفخة البعث والنشور، وقد جاء في الكتاب العزيز آيات تدل عليها كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس:٥١] وقوله ﴿نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: ٤١] قال المفسرون المنادي: إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور وينادي أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، والمكان القريب صخرة بيت المقدس، وبين النفختين أربعون عامًا.

قال بعض العلماء: اتفقت الروايات على ذلك وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا «**ما بين النفختين أربعون**» قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يومًا. قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون عامًا؟ قال: أبيت» الحديث. قوله: أبيت فيه ثلاثة تأويلات: قيل: امتنعت من بيان ذلك. وقيل: أبيت أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك وقيل: نسيت. وقيل سر ذلك لأنه لا يعلمه إلا الله تعالى.

وفي تفسير الثعلبي عن أبي هريرة رضي الله تعالى مرفوعًا «**إن الله يرسل مطرًا على الأرض فينزل عليها أربعين يومًا حتى يكون فوقهم اثنا عشر ذراعًا، فيأمر**

الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت، قال الله تعالى ليحيي حملة العرش ليحيي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ثم يأمر الله تعالى إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نورًا والأخرى ظلمة فيقبضها جميعًا، ثم يلقيها في الصور، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح، كلها كأنها النحل، قد ملأت ما بين السماء والأرض ثم يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي ترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل الأرواح من الخياشيم، ثم تمشي مشي السهم في اللديغ، ثم تتشقق الأرض عنهم سراعًا، فأنا أول من تنشق عنه الأرض، فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون».

وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان «ثم ينـــزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق منه يوم القيامة»، قال الحافظ المنذري كغيره عجب الذنب -بفتح العين المهملة وإسكان الجيم بعدها باء موحدة أو ميم - هو العظم الحديد الذي يكون في أسفل الصلب، وأصل الذنب من ذوات الأربع. وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: « مثل حبة خردل منه تنبتون» وفي تفسير الثعلبي وابن عطية عن أبي هريرة وابن عباس ﷺ «وإذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى - يعني نفخة الصعق- أمطر عليه أربعين عامًا كمني الرجال من ماء تحت العرش يدعى ماء الحيوان فينبتون من قبورهم بذلك المطر كما ينبت الزرع من الماء، حتى إذا استكملت أجزاءهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون في قبورهم، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية، وقاموا هم يجدون طعم النوم في أعينهم، كما يجده النائم إذا استيقظ من نومه، فعند ذلك يقولون: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا».

وروى الإمام أحمد في الزهد عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا «يجاء بالجبارين والمتكبرين يوم القيامة رجال في صورة الذر يطؤهم الناس من هوانهم على الله،

حتى يقض الله بين الناس، ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار؟ قيل يا رسول الله: وما نار الأنيار؟ قال عصارة أهل النار».

كذا وقوف الخلق للحساب والصحف والميزان للثواب.

(كذا) أي كما يجب الجزم بالبعث والحشر، يجب أن يجزم جزمًا باتًا بأمر (وقوف الخلق) من الإنس والجن والدواب والطير وغيرهم، قال تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] والحاصل أن الله يجمع في ذلك اليوم الأولين والآخرين، حتى لا يدري الشخص أين يضع قدمه من شدة الزحام.

واعلم أن ليوم الوقوف أهوالاً عظيمة وشدائد جسيمة تذيب الأكباد، وتذهل المراضع، وتشيب الأولاد، وهو حق ثابت ورد به الكتاب والسنة وانعقد عليه الإجماع، وهو يوم القيامة.

وقد اختلف في تسميته بذلك، فقيل: لكون الناس يقومون من قبورهم، وقيل لقيام الناس لرب العالمين. كما روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين: ٦] قال يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه.

قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: يقومون مائة سنة، وروى عن كعب ثلاثمائة سنة. وروى أبو يعلى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ **مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب»**.

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة**» فقيل: ما أطول ما هذا اليوم؟ فقال: رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة**» قيل: إنما سمي يوم القيامة لقيام الملائكة والروح فيه صفًا قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ [النبأ: ٣٨] قال القرطبي القيامة قيامتان: صغرى وكبرى، فالصغرى ما يقوم على كل إنسان في خاصته من خروج

روحه، وانقطاع سعيه، وحصوله على عمله، والكبرى هي التي تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة.

لطيفة

سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن يوم القيامة. أهو من الدنيا أم من الآخرة؟ فقال صدر ذلك اليوم من الدنيا وآخره من الآخرة.

أخرج ابن المبارك عن كعب قال: لو أن رجلاً كان له مثل عمل سبعين نبيًا لخشي أن لا ينجو من ذلك اليوم.

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا «**يغرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم**».

وأخرج مسلم عن المقداد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أوميلين -قال- فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق على قدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجامًا**».

قال سليم بن عامر ما أدري ما يعني بالميل، مسافة الأرض، أو الميل الذي يكحل به العين. قال: «**فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق**» الحديث.

وأخرج الحاكم وصححه عن جابر ﷺ مرفوعًا «**إن العرق ليلزم المرء في الموقف حتى يقول يا رب إرسالك بي إلى النار أهون على مما أجد**» وهو يعلم ما فيها من شدة العذاب.

فائدة

قد صح أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء خمسمائة عام، فيكونون قد سلموا من تلك الأهوال، ونجوا من ذلك النكال والوبال، قال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض وأذابت الجوامد، ونشفت الأنهار.

وهذا الوقوف مع ما مر (للحساب) الثابت بالسنة والكتاب وإجماع أهل الحق

بلا ارتياب، قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] وقال في حق أعدائه ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ١٨] ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] قال الثعلبي: الحساب تعريف الله الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيرهم إياه ما قد نسوه من ذلك، يدل على هذا قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾ [المجادلة:٦].

والحساب: مصدر حاسب، وحسب الشيء يحسبه بالضم إذا عده سماعًا وهو معنى قول من قال: الحساب لغة العد، واصطلاحًا توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم، خيرًا كان أو شرًا، تفصيلاً لا بالوزن إلا من استثنى منهم.

وقد اختلف في معنى محاسبته تعالى عباده على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يعلمهم مالهم وما عليهم، قال بعض العلماء: بأن يخلق الله في قلوبهم علومًا ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب.

والعقاب الثاني: ونقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن يوقف الله تعالى عباده بين يديه ويؤتيهم كتب أعمالهم فيها سيئاتهم وحسناتهم، فيقول: هذه سيئاتكم وقد تجاوزت عنها، وهذه حسناتكم وقد ضاعفتها لكم.

الثالث: أن يكلم الله عباده في شأن أعمالهم وكيفية مالها من الثواب، وما عليها من العقاب، وفي هذه من صحيح الأخبار وصريح الآثار ما يقلع شرس من في قلبه نوع اختلاق كل شبهة وبدعة.

وقد أخرج الترمذي من حديث أبي برزة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزول قدم عبد حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن علمه، فيما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. وعن جسمه فيما أبلاه**» قال الترمذي حديث حسن صحيح.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «**من نوقش الحساب عذب. فقالت: أليس يقول الله تعالى:** ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝﴾ [الانشقاق: ٧-٩] **فقال ﷺ إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**».

وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**» الجلحاء: التي لا قرن لها.

وفي حديث عبد الله بن القيس ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**يحشر الله العباد يوم القيامة –وقال الناس –عراة غرلا بهما، قال. قلنا: ومابهما؟ قال: ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الديان، أنا المالك، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقضيه منه، حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف وإنما نأتي عراة غرلا بهما؟ قال: الحسنات والسيئات**» رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

تنبيهات

إنما قدم الحساب بعد الحشر والوقوف على أخذ الصحف مع أنه مؤخر عن أخذ الصحف في الوقوع؛ لأن الحساب من المقاصد، وأخذ الصحف من الوسائل فقدمت المقاصد على الوسائل مع مراعاة قافية النظم.

الثاني: كيفية الحساب مختلفة وأحواله متباينة، فمنه العسير، ومنه العدل، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ والتبكيت، ومنه الفضل والصفح ومتولي ذلك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

الثالث: أول من يحاسب العلماء أو الغازون وأرباب الأموال، وأول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، كما أخرج الإمام عبد الله بن المبارك وأبو داود والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أول ما يحاسب العبد عليه يوم القيامة الصلاة، يقول الله تعالى لملائكته: انظروا لصلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت**

له تامة، وإن كان ينقص منها شيئًا قال الله: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك».

وأخرج النسائي عن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أول ما يحاسب عليه العبد صلاته، وأول ما يقضي بين الناس في الدماء**».

فإن قيل: قد ورد في التنزيل أن الناس لا يسألون قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٩].

فالجواب: أنه معارض بقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣] ويجاب عن الآية الكريمة أنهم لا يسألون سؤال استفهام؛ لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: فعلتم كذا، وقيل يسألون في موطن دون موطن، رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٥- ٣٦] وفي الآية الأخرى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر:٣١] فللناس يوم القيامة حالات والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات، ومن ثم قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنية: أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون، فذلك قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ ﴾ [السجدة ١٢] فإذا أذن لهم في الكلام تكلموا واختصموا فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر:٣١] عند الحساب وإعطاء المظالم ثم يقال لهم بعد ذلك ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ [ق:٢٨] يعني في الدنيا، فإن العذاب مع هذا القول كائن. ا هـــ .

الرابع: اختلف في المسئول عنه والمسئول، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن لا إله إلا الله، وقال الضحاك عن خطاياهم. وقال القرطبي: عن جميع

أقوالهم وأفعالهم ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣].

قال الفخر الرازي: والضمير في قوله تعالى لنسألهم، عائد على جميع المكلفين الأنبياء وغيرهم، ويدل على سؤالهم صريحًا ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦] فهذه الآية تدل على أنه يحاسب كل عباده؛ لأنهم لا يخرجون عن أن يكونوا كلهم مرسلين أو مرسل إليهم. ا. هـ

والجواب: أنه لا حساب على الأنبياء عليهم السلام، على سبيل المناقشة والتقريع.

قال النسفي: الأنبياء لا حساب عليهم. وكذلك أطفال المؤمنين، وكذلك العشرة المبشرين بالجنة، هذا في حساب المناقشة وعموم الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب، ولهذا قال علماؤنا في عقائدهم: ويحاسب المسلمون المكلفون إلا من شاء الله أن يدخل الجنة بغير حساب، وكل مكلف مسئول، ويسأل من شاء من الرسل عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسل.

قال شيخ الإسلام في الواسطية: ويحاسب الله تعالى الخلق ويخلو بعبده المؤمن ويقرره بذنوبه، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة. قال: وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم، وتحصى فيوقفون عليها ويقرون بها.

وأخرج الإمام أحمد بسند جيد عن أبي عسيب ﷺ، أن النبي ﷺ دخل حائطًا لبعض الأنصار، ومعه أبو بكر وعمر فجاء صاحب الحائط بعذق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد، فشرب فقال: «**لتسألن عن هذا يوم القيامة**» فقيل: يا رسول الله إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: نعم، إلا عن ثلاث: خرقة يكف بها عورته وكسرة يسد بها جوعته، وجحر يدخل فيه من الحر والبرد».

وأخرج الطبراني والبزار والحاكم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابًا يسيرًا وأدخله الجنة برحمته، قالوا: وما هي؟ قال: تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك»** وفي ترغيب الأصبهاني عن أنس مرفوعًا: **«إن استطعت أن تمسي وتصبح، وليس في قلبك غش لأحد، فافعل فإنه أهون عليك في الحساب»**.

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال أعرابي: يا رسول الله، من يحاسب الخلق يوم القيامة؟ قال: الله. قال: نجونا ورب الكعبة، قال: وكيف يا أعرابي؟ قال: إن الكريم إذا قدر عفا.

وما أحسن ما قيل من الحكم المدونة: الكريم إذا قدر غفر وإذا زللت معه ستر، ومنها: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام.

فائدة

ذكر القرطبي كغيره، أن الله تعالى يكلم المسلمين عند الحساب من غير ترجمان إكرامًا لهم، ولا يكلم الكافرين بل تحاسبهم الملائكة إهانة لهم. وتمييزًا لأهل الكرامة.

الخامس: ثبت في عدة أخبار أن طائفة من هذه الأمة يدخلون الجنة بغير حساب، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: **«عرضت علي الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان، والنبي وليس معه أحد، والنبي معه الرهط، فرأيت سوادًا كثيرًا، فرجوت أن تكون أمتي فقيل له: هذه أمة موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر فرأيت سوادًا كثيرًا قد سد الأفق قيل: هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا فقيل: هذه أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب»**، فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله ﷺ، فتذاكر ذلك أصحابه، فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك، ولكنا قد آمنا بالله ورسوله، هؤلاء أبناءنا، فقال رسول الله ﷺ: **«هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»** فقام عكاشة بن محصن

فقال: أنا منهم. وفي لفظ ادع الله أن أكون منهم يا رسول الله. قال: نعم، ثم قام آخر فقال: أنا منهم، فقال: سبقك بها عكاشة».

قال الإمام المحقق في كتابه «الداء والدواء» قوله ﷺ: «**سبقك بها عكاشة**»، ولم يرى أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له، لقام آخر وآخر، وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى.

وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي أمامة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثيات ربي**» ويروى «**حفنات**» بالفتح وهو الغرف ملء اليدين وقيل: الحفية باليد، والحفنة باليدين.

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن أبي أيوب ﷺ، أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إليهم فقال: «**إن ربي خيرني بين سبعين ألفًا يدخلون الجنة عفوًا بغير حساب، وبين الخبيئة عنده لأمتي، فقال له بعض أصحابه: أيخبأ ذلك ربك؟ فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج وهو يكبر، قال: إن ربي زادني مع كل ألف سبعين ألف والخبيئة عنده فقيل: يا أبا أيوب، وما تظن خبيئة رسول الله ﷺ؟ فأكله الناس بأفواههم، فقالوا: ما أنت خبيئة رسول الله ﷺ؟ فقال أبو أيوب: دعوه، أخبركم عن خبيئة رسول الله ﷺ، إن خبيئة رسول الله ﷺ أن يقول: ربي من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، مصدقًا لسانه قلبه، فأدخله الجنة**»، الخبيئة بخاء معجمة فموحدة وهمزة بوزن خطيئة.

وأخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**سألت ربي فوعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفًا على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدته فزادني مع كل ألف سبعين ألفًا فقلت: أي ربي أرأيت إن لم يكن هؤلاء مهاجري أمتي، قال: إذًا أكملهم لك من الأعراب**».

وأخرج الطبراني والبيهقي عن عمرو بن حزم الأنصاري ﷺ قال: تغيب عنا

رسول الله ﷺ ثلاثًا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة، ثم يرجع، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يا رسول الله، احتبست عنا حتى ظننا أن قد حدث حدثًا؟ قال: «**لم يحدث إلا خير إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفًا لا حساب عليهم، وإني سألت ربي في هذه الثلاثة الأيام المزيد، فوجدت ربي ماجدًا كريمًا فأعطاني كل واحد من السبعين ألفًا سبعين ألفًا. قلت: يا ربي أوتبلغ أمتي هذا؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب**».

وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، وقلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفًا**» قال أبو بكر ﷺ: فرأيت أن ذلك يأتي على أهل القرى ويصيب من حفاة البوادي.

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أعطاني ربي سبعين ألفًا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عمر: يا رسول الله فهلا استزدته؟ قال: قد استزدته، فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفًا. فقال عمر: فهلا استزدته، قال: قد استزدته فأعطاني هكذا، وفرج بين يديه وبسط باعيه وحثا**» قال هشام هذا من الله، ما يدري ما عدده.

وأخرج البزار عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب**» فقال أبو بكر يا رسول الله، زدنا، قال: وهكذا، فقال عمر: يا أبا بكر إن شاء أدخلهم الجنة بحفنة واحدة.

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن حذيفة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن ربي استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم، ما شئت يا رب هم خلقك وعبادك، فقال: لا نخزيك في أمتك، وأخبرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا ليس عليهم حساب**».

ولما أنهينا الكلام على الحساب،ثنينا العطف على شرح الصحف والميزان المشار إلى ذلك بقوله (و) كذا وقوف الخلق لأخذ (الصحف) جمع صحيفة، وهي الكتب التي كتبتها الملائكة، وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر أعمالهم في الدنيا القولية والفعلية وغيرهم.

وقيل: هي صحف كتبها العباد في قبورهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾ [التكوير: ١٠] قال الثعلبي: أي التي فيها أعمال بني آدم نشرت للحساب، وإنما يؤتى بالصحف إلزامًا للعباد ودفعًا للجدل والعناد. وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣] قال العلماء: معنى طائره عمله.

وفي الآية الأخرى ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧١] والفتيل: هو القشر الذي في شق النواة، وهذا يضرب مثلاً للشيء الحقير.

قال العلامة الشيخ مرعي: وإنما أخص بالقرآن بمن أوتي كتابه بيمينه دون من أوتيه بشماله؛ لأن أهل الشمال إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح، فيتولى الخوف والدهش على قلوبهم، ويثقل لسانهم، فيعجزون عن القراءة الكاملة، بخلاف أصحاب اليمين، فإنهم إذا طالعوا صحف حسناتهم وجدوها على الكمال، فيقرءون كتابهم على أحسن الأحوال.

والحاصل: أن نشر الصحف وأخذها باليمين والشمال مما يجب الإيمان به، وعقد القلب بأنه حق لثبوته بالكتاب والسنة والإجماع، فقد أخرج العقيلي عن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**الكتب كلها تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة بعث الله ريحًا فتطيرها بالأيمان والشمال**» أول خط فيها ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٤] قال قتادة: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئًا في الدنيا.

وأخرج ابن المبارك عن أبي عثمان المهدي قال: إن المؤمن ليعطى كتابه فيقرأ سيئاته فيتغير لونه ثم يقرأ حسناته ثم يرجع إليه لونه، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات، فعند ذلك يقول: هاؤم اقرءوا كتابيا.

وأخرج مكي في تفسيره عن أم المؤمنين عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: يا رسول الله، كيف يحاسب حسابًا يسيرًا قال: «**يؤتى العبد كتابه بيمينه يقرأ سيئاته ويقرأ الناس حسناته، ثم يحول الصحيفة فيحول الله حسناته فيقرؤها الناس فيقولون: ما كان لهذا العبد من سيئة فهذا تفسير قوله تعالى:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق: ٧ -٩] **أهله هم أهل الجنة كما في البهجة**».

فائدتان

الأولى: يعطى الكافر كتابه بشماله من وراء ظهره بأن تخلع أو يدخلها من صدره أو تلوى، ويعطى المؤمن العاصي كتابه بشماله من أمامه، ويعطى المؤمن الطائع كتابه بيمينه من أمامه، وقد جزم الماوردي بأن المشهود: أن الفاسق الذي مات على فسقه دون توبة، يأخذ كتابه بيمينه. ثم حكى قولاً بالموقف قال: ولا قائل بأنه يأخذه بشماله.

وقال يوسف بن عمر من المالكية: اختلف في عصاة الموحدين فقيل: يأخذون كتبهم بأيمانهم، وقيل بشمائلهم، وعلى القول بأنهم يأخذونها بأيمانهم، قيل: يأخذونها قبل الدخول في النار، يكون ذلك علامة على عدم خلودهم فيها، وقيل: يأخذونها بعد الخروج منها، والله أعلم.

الثانية: ورد أن أول من يأخذ كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد، واسمه عبد الله، وهو أول من يدخل الجنة من هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، وهو أول من هاجر من مكة إلى المدينة.

وقال بعض علماء المالكية: أول من يعطى كتابه بيمينه، وله شعاع كشعاع الشمس، عمر بن الخطاب ﷺ، وبعده أبو سلمة. اهـ.

قال القرطبي: إذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التي يؤمر بها بعد البعث، حوسبوا بها.

وأخرج ابن المبارك عن رجل من بني أسد قال: قال عمر ﷺ لكعب حدثنا

عن حديث الآخرة، قال: نعم يا أمير المؤمنين، إذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ، فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله، ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد، فتنشر حول العرش، ثم يدعى المؤمن، فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه.

(و)كذا وقوف الخلق لأجل (الميزان) اعلم أن مراتب الميعاد والبعث والنشور، ثم المحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال، ثم السؤال والحساب، ثم الميزان (للثواب) أي ثواب الأعمال الصالحة، وغب السيئات الفاضحة.

قال علماؤنا كغيرهم: نؤمن بأن الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات حق، قالوا: وله لسان وكفتان توزن به صحائف الأعمال.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: توزن الحسنات في أحسن صورة والسيئات في أقبح صورة.

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، وأن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة ٦- ٩] الخ.

والحاصل أن الإيمان بالميزان كأخذ الصحف ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، قال عبد الله بن سلام ﷺ: إن ميزان رب العالمين ينصب للجن والإنس، يستقبل به العرش، إحدى كفتيه على الجنة والأخرى على جهنم، لو وضعت السموات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبريل آخذ بعموده ينظر إلى لسانه، قال في البهجة: في هذا أن أعمال الجن توزن، كما توزن أعمال الإنس، وهو كذلك ارتضاه الأئمة.

قال القرطبي: المتقون توضع حسناتهم في الكفة النيرة وصغائرهم في الكفة

الأخرى، فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنًا، وتثقل الكفة النيرة حتى لا ترتفع وترفع المظلمة ارتفاع الفارغة الخالية، قال: وأما الكفار، فيوضع كفرهم وأوزارهم في الكفة المظلمة، وإن كان لهم أعمال بر وضعت في الكفة الأخرى، فلا تقاومها إظهارًا لفضل المؤمنين وذل الكافرين، والحق أن الكفار لا يقيم الله لهم وزنًا لقوله تعالى ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥] ومن قال: توزن أعمالهم لوروده في ظواهر عموم الآيات والأحاديث يجيب عن الآية الكريمة بأنه تعالى لا يقيم لهم وزنًا نافعًا كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣] أي كالهباء في عدم نفعه، وحصول فائدته.

وأخرج الحاكم وصححه من حديث سلمان الفارسي ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعهن، فتقول الملائكة يارب من يزن هذا؟فيقول: لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك**».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: «**يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، قال: وإن الميزان تخف بمثقال حبة وترجح، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط**».

وأخرج في الزهد من طريق رباح بن يزيد عن أبي الجراح عن رجل يقال له حازم، أن النبي ﷺ نـزل عليه جبريل وعنده رجل يبكي فقال: من هذا؟ قال: فلان، قال جبريل: أنا أزن أعمال بني آدم إلا البكاء، فإن الله يطفيء بالدمعة بحورًا من نيران جهنم».

وأخرج البيهقي عن مسلم بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أغرورقت عين بمائها إلا حرم الله سائر الجسد على النار، ولا سالت قطرة على خدها فيرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة، ولو أن باكيًا بكى في أمة من الأمم، لرحموا، وما**

من شيء إلا له مقدار وميزان، إلا الدمعة فإنها يطفأ بها بحار من النار».

وأخرج الترمذي وحسنه من حديث أنس ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ: **«أن يشفع لي يوم القيامة قال: «أنا فاعل إن شاء الله، قلت: فأين أطلبك؟ قال أول ما تطلبني على الصراط. قلت: فإن لم ألقك على الصراط، قال: فاطلبني عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان، قال فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاث مواطن».**

تنبيهات

الأول: اختلف في الميزان، هل هو واحد أو أكثر، فالأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال، كفتاه كأطباق السموات والأرض، كما مر وقيل: إنه لكل أمة ميزان. وقال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان، وقال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد، لقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ﴾ وقوله ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ وقال بعضهم: إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم وهو حسن.

الثاني: اختلف في الموزون، قيل: يوزن العبد على عمله، وقيل: توزن نفس الأعمال فتصور الأعمال الصالحة بصور حسنة نورانية، ثم تطرح في كفة النور وهي اليمنى المعدة للحسنات، فتثقل بفضل الله سبحانه وتصور الأعمال السيئة بصور قبيحة ظلمانية ثم تطرح في الكفة المظلمة وهي الشمال المعدة للسيئات فتخف بعدل الله سبحانه كما جاء به الحديث، فامتناع قلب الحقائق في مقام خرق العادات غير ملتفت إليه كما لا يخفى، وقيل إن شاء الله تعالى يخلق أجسامًا على عدد تلك الأعمال عن غير قلب لها.

والحق ما قدمناه أن الموزون صحف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي، وذهب إليه جمهور المفسرين ويؤيد ذلك حديث البطاقة والسجلات، ورواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي. وقال الحاكم على شرط مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله

عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مثل مد البصر: ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيقول: لا يا رب. فيقول الله تعالى: بلى، فلك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم، وتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء**».

الثالث: فإن قيل ما الحكمة في الوزن مع أن الله تعالى عالم بكل شيء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

أجاب الثعلبي: بأن الحكمة في ذلك تعريف الله عباده ما لهم عنده من الجزاء من خير أو شر.

قال العلامة الشيخ مرعي: بل الحكمة فيه إظهار العدل وبيان الفضل، إنه يزن مثاقيل الذر من خير أو شر ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

ولما انتهى الكلام على الوقوف والحساب والصحف والميزان أعقب ذلك بذكر الصراط فقال:

كذا الصراط ثم حوض المصطفى فياهنا لمن به نال الشفا

(كذا) جزم بثبوت (الصراط) فإنه حق ثابت، وهو في اللغة الطريق الواضح، ومنه قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

والصراط: بالصاد والسين المهملتين وبالزاي على نـــزاع في إخلاصهما ومضارعتها بين الصاد والزاي، وفي الشرع جسر ممدود على متن جهنم فيرده

الأولون والآخرون. فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخلق من حين خلقت جهنم.

قال القرطبي: اعلم رحمك الله تعالى أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب وإلا من يلتقطه عنق من النار وإذا خلص من خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه، ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص لهم، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله تعالى؛ لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم التي يسقط فيها من أوبقته ذنوبه وزاد على الحسنات جرمه وعيوبه، فقد أخرج البخاري والإسماعيلي في مشيخته واللفظ له عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ في هذه الآية ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ٤٧] قال: «**يخلص المؤمنون من النار فيجلسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزلة في الجنة منه بمنزلة في الدنيا**».

قال قتادة: كان يقال ما يشبه بهم إلا أهل الجمعة انصرفوا من جمعتهم.

قال القرطبي: هذا في حق من لم يدخل النار من عصاة الموحدين أما من دخلها ثم أخرج فإنهم لا يحبسون بل إذا أخرجوا بقوا على أنهار الجنة».

قال الحافظ ابن حجر: قوله يخلص المؤمنون من النار. أي ينجون من السقوط فيها بمجاوزة الصراط عنها. قال: اختلف في القنطرة المذكورة فقيل: إنها من تتمة الصراط، وهي طرفه الذي يلي الجنة، وقيل إنها صراط آخر: وبه جزم القرطبي.

قال الجلال السيوطي: والأول هو المختار الذي دلت عليه أحاديث القناطر والحساب على الصراط. انتهى.

قال العلماء: الصراط أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وأحر من الجمر فقد أخرج الطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**يوضع الصراط على**

سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضة أي مزلقة أي لا تثبت عليه قدم بل تزل عنه إلا من يثبته الله تعالى، عليه كلاليب من نار تخطف أهلها فتمسك بهواديبها ويستبقون عليه بأعمالهم، فمنهم من شده كالبرق فذاك الذي ينشب أن ينجو، ومنهم من شده كالريح، ومنهم من شده كالفرس الجواد، ومنهم من شده كهرولة الرجل، ثم كرمل الرجل، ثم كمشي الرجل، وآخر من يدخل الجنة رجل لوحته النار فيقول الله له: سل وتمن، فإذا فرغ قال لك ما شُئت ومثله معه».

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«لجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك تأخذ من يشاء الله والناس عليه كالطرف، وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون رب سلم سلم فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكروس في النار على وجهه».**

وأخرج البيهقي عن أنس ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الصراط كحد السيف وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات، وأن جبريل لآخذ بحجزتي، وإني لأقول يا رب سلم سلم، فالزالون والزالات يومئذ كثير».**

وفي بعض الآثار: أن طول الصراط مسيرة ثلاثة آلاف سنة، ألف منه صعود، وألف منها هبوط،وألف منها استواء.

وقد ذكر القرطبي عن بعض أهل العلم أنه قال: لا يجوز أحد الصراط حتى يسأل عند سبع قناطر، فأما القنطرة الأولى فيسأل عن الإيمان بالله وهي شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها مخلصًا والإخلاص قول وعمل جاز، ثم يسأل على القنطرة الثانية عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل في القنطرة الثالثة عن صوم رمضان فإن جاء به تامًا جاز ثم يسأل في الرابعة عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة فإن جاء بهما تامين جاز إلى القنطرة السادسة فيسأل عن الغسل والوضوء فإن جاء بهما تامين جاز إلى السابعة وليس في القناطر أصعب منها فيسأل فيها عن ظلامات الناس وتبعات الخلق.

تنبيه

اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسرًا ممدودًا على متن جهنم أحد من السيف، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه زعمًا منهم أنه لا يمكن عبوره وإن أمكن ففيه تعذيب ولا عذاب على المؤمنين يوم القيامة، وإنما المراد به طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ ﴾ [محمد: ٥] وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٣] وهذا باطل لوجوب[١] رد النصوص على حقائقها وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء والطير في الهواء والوقوف فيه. وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحة لذلك.

وأنكر العلامة القرافي: كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، وسبقه إلى ذلك شيخه العز بن عبد السلام.

وقال المنكر لكون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، هذا إن ثبت حمل على غير ظاهره لمنافاته للأحاديث الأخر من قيام الملائكة على جنبته وكون الكلاليب والحسك فيه وإعطاء كل من المارين عليه من النور قدر موضع قدميه.

قال القرافي والصحيح أنه عريض، وقيل طريقان يمنى ويسرى، فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال وفيه طاقات كل طاقة تنفذ إلى طبقة من طبقات جهنم، وجهنم بين الخلق وبين الجنة والجسر على ظهرها منصوب فلا يدخل أحد الجنة حتى يمر على جهنم وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾ [مريم: ٧١] على أحد الأقوال.

ثم قال القرافي تبعًا للحافظ البيهقي: كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف لم أجده في الروايات الصحيحة وإنما يروى عن بعض الصحابة فيؤول بأن

---

(١) مخ (لو.ـود رد) والظاهر (لوجوب حمل).

أمره أدق من الشعر، فإن يسر الجواز عليه وعسره على قدر الطاعات والمعاصي ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى، وقد جرت العادة بضرب دقة الشعر مثلاً للغامض الخفي وضرب حد السيف لإسراع الملائكة في المضي لامتثال أمر الله تعالى وأجازه الناس عليه، ورد هذا الإمام القرطبي وغيره والله أعلم.

وقد أخرج الإمام عبد الله بن المبارك وابن أبي الدنيا عن سعيد بن هلال قال: بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر وعلى بعض مثل الوادي الواسع (ثم) جزم بعد البعث والنشور وأخذ الصحف والمرور بثبوت (حوض) النبي (المصطفى) نبينا محمد ﷺ فإنه حق ثابت بإجماع أهل الحق قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾ .

قال الحافظ السيوطي: ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيًا منهم الخلفاء الأربعة الراشدون وحفاظ الصحابة المكثرون وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين ثم ذكر الأحاديث عنهم.

قال القرطبي: ذهب صاحب القوت إلى أن الحوض بعد الصراط، قال والصحيح أنه قبله وكذا قال الغزالي ذهب بعض السلف إلى أن الحوض يورد بعد الصراط وهو غلط، قال القرطبي: والمعنى يقتضي تقديم الحوض على الصراط فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشًا فناسب تقديمه لحاجة الناس إليه.

قال ابن حمدان في عقيدته: يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط.

قال القرطبي: إن للنبي ﷺ حوضين أحدهما في العرض قبل الصراط، والثاني في الجنة، وكلاهما يسمى كوثرًا، والكوثر في كلام العرب الخير الكثير.

قال الجلال السيوطي: وقد ورد في التصريح عند الحاكم وغيره بأن الحوض بعد الصراط فإن قيل إذا خلصوا من الموقف دخلوا الجنة فلم يحتاجوا إلى الشرب منه، فالجواب: بل يحتاجون إلى ذلك؛ لأنهم محبوسون هناك لأجل المظالم، فكان الشرب في موضع القصاص، ويحتمل الجمع بأن يقع الشرب من الحوض قبل الصراط

لقوم وتأخيره بعده لآخرين بحسب ما عليهم من الذنوب والأوزار حتى يهذبوا منها على الصراط ولعل هذا أقوى. ا هـ.

قال العلامة الشيخ مرعي: وهذا في غاية التحقيق جامع للقولين وهو دقيق. انتهى.

تنبيهان

الأول: اختلفت الروايات في تحديد الحوض وتقديره اختلافًا كثيرًا، ففي بعضها مسيرة شهر وزواياه سواء في بعضها، كما بين عدن وعمان، وفي بعضها ما بين صنعاء والمدينة وفي مسلم ما بين عدن وعمان البلقا وغير ذلك.

قال النووي: ليس في ذكر المسافة القليلة ما يدفع المسافة الكبيرة، فالأكثر ثابت بالحديث الصحيح فلا معارضة، وقال بعضهم: سبب الاختلاف ملاحظة سرعة السير وعدمها، فقد عهد في الناس من يقطع مسيرة عشرة أيام في ثلاثة أيام وتمسكه، وأكثر من ذلك وأقل والله أعلم.

الثاني: جاء في الأحاديث أن لكل نبي حوضًا، فأخرج الترمذي من حديث سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبي حوضًا إلا صالحًا** عليه السلام**، فإن حوضه ضرع ناقته**» والله أعلم.

(فكن) أيها الناظر لنظامي السامع لكلامي «مطيعًا» لما جاءت به الأخبار من صحيح المنقول (واقف) أمر من قفوته قفوًا تبعته أي اتبع في اعتقادك «أهل الطاعة» من فرقة أهل السنة، فإنها الفرقة الناجية، والطاعة اسم من أطاع يطيعه فهو مطيع والاسم والطاعة في إثبات «**الكوثر**» وهو فوعل من الكثرة والواو زائدة، ومعناه الخير الكثير.

قال النبي ﷺ وقد سأل ما الكوثر؟ «**ذلك نهر أعطانيه الله عز وجل -يعني الجنة- أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر**» قال عمر ﷺ إن هذه لناعمة. قال رسول الله ﷺ «**أكلتها أنعم منها**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وفي صحيح البخاري عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك. قال: فضرب الملك بيده فإذا طينته مسك أذفر**».

قال المحقق في كتاب حادي الأرواح: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها:

الكوثر نهر في الجنة ليس أحد يدخل أصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر شبه الخرير الذي يسمعه حين يدخل أصبعيه في أذنيه انتهى. (و) أقف أهل الطاعة واتبع أهل السنة والجماعة في (الشفاعة) وهي لغة الوسيلة والطلب وعرفًا: سؤال الخير للغير، كذا عرفها بعضهم.

والحق أنها مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له من شفع يشفع بفتح العين المهملة شفاعة فهو شافع وشفيع، والمشفع بكسر الفاء الذي يقبل شفاعته واعلم أن (للنبي ﷺ) شفاعات.

الأولى: الشفاعة العظمى التي يشفع فيها لأهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع من آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وهي المقام المحمود. وقد ورد من حديث الصديق الأعظم وأنس وأبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة وعقبة بن عامر وأبي سعيد الخدري وسليمان الفارسي هؤلاء ورد أمر الشفاعة في أحاديث مطولا وورد مختصرًا من حديث أُبي بن كعب وعبادة بن الصامت وجابر بن عبد الله بن سلام وغيرهم ﷺ أجمعين. أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مقامنا هذا فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول: لهم آدم: لست هناكم ويذكر ذنبه الذي أصابه فيستحي ربه من ذلك ويقول: ولكن ائتوا نوحًا فإنه رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحًا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته سؤاله ربه ما**

ليس له به علم فيستحي ربه من ذلك ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقول: لست هناكم ولكن ائتوا موسى عبدًا كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر لهم النفس التي قتل بغير حق فيستحي ربه من ذلك ولكن ائتوا محمدًا عبدًا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونني فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين فأستأذن على ربي فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع محمد قل يسمع واشفع تشفع وسل تعط فأرفع رأسي وأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع» الحديث.

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا وخطيبهم إذا أنصتوا وقائدهم إذا وفدوا وشافعهم إذا حبسوا ومبشرهم إذا أيسوا، لواء الكرم بيدي ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر يطوف علي ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون».

وعند البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذاك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وقد تدنو منه الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلا ما قد بلغكم ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس أبوكم آدم فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده،ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيحيلهم على إبراهيم وإبراهيم على موسى وموسى على عيسى وعيسى يقول: اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا

ترى إلى ما نحن فيه فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي ثم يفتح الله عليّ من محامد وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول أمتي يا رب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر وكما بين مكة وبصري».

فوائد

الأولى: هذه الشفاعة العامة التي خص بها نبينا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء وهي المرادة بقوله ﷺ «**لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي**» هذه الشفاعة لأصل الموقف إنما هي لأجل حسابهم ويراحوا من الموقف، كما قاله القرطبي في تذكرته قال: وقوله في حديث أبي هريرة «**يا محمد ادخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن**» يدل على أنه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم وكان طلب هذه الشفاعة من الناس غلط ثم يلهون. وذكر ابن برجان في الإرشاد وإن الذي يدلهم على ذلك رؤوس المحشر وهو رأسًا اتباع الرسل. قال الحافظ الجلال السيوطي وحديث لكل نبي دعوة الخ متواتر وحكمة إلهام الناس التردد إلى غير النبي ﷺ قبله ولم يلهموا المجيء إليه من أول وهلة لإظهار فضله، وشرفه ﷺ.

الثانية: شفاعة النبي ﷺ من السمعيات وردت بها الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي وانعقد عليها إجماع أهل الحق قبل ظهور المبتدعة، لكن هذه الشفاعة العظمى مجمع عليها لم ينكرها أحد ممن يقول بالحشر إذ هي للإراحة من طول الوقوف حين يتمنون الانصراف من موقفهم ذلك ولو إلى النار.

الثالثة: سئل القاضي جلال الدين البلقيني عن حكم سجود النبي ﷺ من حيث الوضوء فأجاب بأنه باق على طهارة غسل الموت ويحتمل وهو الأصح بأن أمور

الآخرة ليست كأحكام الدنيا إذ الآخرة ليست بدار تكليف فلا يتوقف السجود فيها على وضوء، والله أعلم.

فـإنهـا ثـابتـةُ للمصطَفى كغيرهِ من كل أسباب الوفاَ
من عالم كالرُّسلِ والأبرار سوى الذي خصَّت بذي

(فإنها) أي الشفاعة العظمى وغيرها من سائر الشفاعات الآتي ذكرها (ثابتة) بالنقل الصحيح بل المتواتر «لـ» لنبي «المصطفى» ﷺ «كـ» ما أنها ثابتة لـ «غيره» أي غير نبينا ﷺ (من كل أرباب) أي أصحاب (الوفا) بامتثال الأوامر والانتهاء عن الزواجر، ثم أخذ في بيان ما أجمل من أرباب الوفا بقوله «من عالم» عامل بعمله معلم لغيره وهم الربانيون هؤلاء ورثة الأنبياء، فهؤلاء كما نفعوا الناس في الدنيا بالدلالة والتعليم، كذلك ينفعونهم بالشفاعة عند المولى الجواد الكريم فيقبل شفاعاتهم ويعلي درجاتهم (كالرسل) جمع رسول وهو من أوحى إليه بشرع من بني آدم وأمر بتبليغه وكذا الأنبياء خواص الخلق من بني آدم (والأبرار) جمع بار، وهم الأتقياء والأخيار.

والحاصل أنه يجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ من سائر الرسل والأنبياء والملائكة والصحابة والشهداء والصديقين والأولياء على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم وبقدر جاههم ووجاهتهم يشفعون لثبوت الأخبار بذلك فيجب تصديقه والقول بموجبه لثبوت الدليل فقد قال ﷺ: «**أنا أول شافع وأول مشفع**» رواه أبو هريرة.أخرجه مسلم.

وأما حديث ابن مسعود ﵁ عند البيهقي قال: يشفع نبيكم ﷺ رابع أربعة جبريل ثم إبراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم ﷺ لا يشفع أحد في أكثر مما يشفع فيه نبيكم ﷺ، ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء. قال البخاري كذا قال ابن الزعراء عن ابن مسعود ولا يتابع عليه، والمشهور أنه ﷺ أول شافع وكذا قال غير البخاري من أئمة الحفاظ، وأخرج الطبراني في الكبير، والبيهقي عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «**ليدخلن الجنة قوم من المسلمين قد عذبوا في النار برحمة الله وشفاعة الشافعين**» وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس ﵁ قال: قال رسول

الله ﷺ: «**يشفع الله آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف عشرة آلاف ألف**» وأخرج ابن أبي عاصم والأصبهاني عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجاء بالعالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم قف حتى تشفع للناس**» وأخرج الديلمي من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا يقال: «**اشفع في تلامذتك ولو بلغ عددهم نجوم السماء**» وأخرج الترمذي والحاكم وصححاه والبيهقي عن عبد الله بن أبي الجدعاء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم قالوا: سواك يا رسول الله؟ قال سواي**».

قال القرطبي: يقال إنه عثمان بن عفان ﷺ وأخرج البيهقي عن الحسن مرفوعًا «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر» وأخرج الترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أمتي لرجالاً يشفع الرجل منهم في الفئام من الناس فيدخلون الجنة بشفاعته ويشفع الرجل منهم للقبيلة فيدخلون الجنة بشفاعته ويشفع الرجل منهم للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته**» وأخرج الطبراني عن ابن مسعود ﷺ قال: «**لاتزال الشفاعة بالناس وهم يخرجون من النار حتى إن إبليس الأباليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه**».

والحاصل: أن للناس شفاعات بقدر أعمالهم وعلو مراتبهم وقربهم من الله تعالى والقرآن يشفع لأهله والإسلام يشفع لأهله والحجر الأسود يشفع لمستلمه ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وبالله التوفيق (سوى) أي نبينا محمد المختار ﷺ ما تعاقب الليل والنهار فلا يشاركه فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا صديق؛ لأنها مختصة بجنابه الرفيع والشفاعات المختصة به ﷺ عدة.

أولها: وهي أعظمها وأعمها شفاعته ﷺ لفصل القضاء بين الورى بعد التردد إلى الأنبياء وتدافعها بين أخبار الملأ إلى أن تصل لصاحب الحوض المورود وهي

المقام المحمود، وقد عم العالم زيادة القلق وتصاعد العرق، وقاسوا من ذلك ما يذيب الأكباد وينسي الأولاد وهذه مجمع عليها لم ينكرها أحد.

ثانيها: يشفع عند ربه في إدخال قوم من أمته الجنة بغير حساب فإن هذه خاصة به أيضًا ﷺ، كما قاله القاضي عياض والإمام النووي وتردد ابن دقيق العيد في الاختصاص وتبعه الحافظ ابن حجر قال: فإن الاختصاص إنما يثبت بالدليل ولا دليل عليه.

ثالثها: شفاعته ﷺ في قوم استوجبوا النار بأعمالهم فيشفع فيهم فلا يدخلونها، وهذه جزم القاضي وابن السبكي في عدم اختصاصها به ﷺ وتردد النووي في ذلك، قال السبكي: لأنه لم يرد نص صريح بثبوت الاختصاص ولا بنفيه وجزم في الأنموذج بأنها من خصائصه ﷺ.

رابعها: في رفع درجات أناس في الجنة، في الأنموذج جوز النووي في اختصاص هذه والتي قبلها به، ووردت الأحاديث في التي قبلها، وصرح به القاضي عياض وابن دحية.

خامسها: الشفاعة في إخراج عموم أمته من النار حتى لا يبقى منهم أحد، ذكره السبكي، وبالشفاعة لجماعة من صلحاء المسلمين ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات، ذكره القزويني في العروة الوثقى.

فصل

في الكلام على الجنة والنار

ولما أنهى الكلام على الشفاعة وأقسامها وتفصيلها وأحكامها أعقب ذلك بذكر العظيمتين: دار القرار للأخيار، ودار البوار للكفار، وهما الجنة والنار فقال:

وكـــل إنســـان وكـــل ... في دار نـــار أو نعيم جنة

همـــا مـــصير الخلـــق من كل ... فالـــنار دار مـــن تعدّى

ومـــن عصى بذنبه لم يخلد ... وإن دخلـــها يـــا بـــوار

(وكل إنسان) من بني آدم، فالإنس والإنسان من البشر والواحد إنس،

وإنسي، والجمع أناسي، والمرأة إنسان وبالهاء عامة كما في القاموس.

(وكل جنة) بكسر الجيم وتشديد النون مفتوحة طائفة من الجن والجان اسم للجن أي كل واحد من الثقلين اللذين هما الإنس والجن لابد أن يكون «في» إحدى الدارين، إما في (دار نار) وهي البوار ومقر الكفار وهي جسم لطيف محرق يطلب العلو يذكر ويؤنث وألفها منقلبة على واو بدليل تصغيره على نويرة وتجمع جمع قلة على نيرة، وأنور وجمع كثرة على نيران، ونور ضوءها وضوء كل نير، وهو ضد الظلمة، والنار سبع طباق أعلاها جهنم، فلظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وباب كل واحدة منها من داخل الأخرى على الاستواء كما قاله ابن عطية وغيره (و) في دار (نعيم) مقيم في (جنة) الولي الكريم الرؤوف الرحيم، فكل واحدة من الجنة والنار حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة وكل ما هو كذلك، فالإيمان به واجب، واعتقاد وجوده حق لازم، والمراد من الجنة دار الثواب ومن النار دار العقاب (هما) أي الجنة والنار (مصير الخلق) إما إلى جنة وإما إلى النار. وأما أهل الأعراف فإن مصيرهم إلى الجنة كما يأتي.

(فالنار) التي هي دار الهوان والبوار (هي دار من) أي كل شخص من إنس وجن (تعدى) طوره وخالف مولاه فكفر به أو بأحد من رسله أو بكتاب من كتبه أو شرع شرعه على لسان نبي بعثه ولم ينسخه.

(وافترى) فيما عبد واجترى بما قصد فلم يقف عند الحدود، ولم يف بالعهد المعهود فكل من حكم الشرع بكفره من أهل الشرك وعبدة الأوثان والكواكب والنيران وأهل الشرائع المنسوخة بعد النسخ والتبديل من أهل التوراة والإنجيل فهم خالدون مخلدون في النار ودار الخزي والبوار (ومن) أي وكل عبد مؤمن بالله ورسوله ولو مبتدعًا لم يحكم الشرع بكفره عصى بمخالفة ربه وتعدى حدوده (بذنبه) ولو كان ذنبه من أكبر الكبائر كالقتل والزنا وأكل الربا مات على الإيمان ولو لم يتب (لم يخلد) في النار (وإن دخلها) ليطهر من الأوزار فإنه يخرج منها إما بشفاعة الشافعين أو رحمة أرحم الراحمين كما تقدم.

(يا بوار) أي يا هلاك (المعتدي) إشارة إلى تقبيح ما ذهب إليه (المعتزلة) من زعمهم أن من دخل النار فهو خالد فيها؛ لأنه إما كافر أو صاحب كبيرة مات بلا توبة، إذ المعصوم والتائب وصاحب الصغيرة إذا اجتنبت الكبائر ليسوا من أهل النار على ما سبق من أصولهم.

والكافر مخلد بالإجماع بخلاف العاصي وتقدم الكلام على ذلك بما فيه كفاية وإن مرتكب الكبيرة إذا مات ولم يتب في مشيئة الله إن شاء عفا عنه ولم يعذبه، وإن شاء عذبه، ثم يخرجه.

وأما خلود المؤمن المصر فهو مذهب الخوارج والمعتزلة وأهل الحق على خلافه وهو الحق الذي لا مرد فيه والله تعالى أعلم.

وجـــــنـــةُ النعـيمِ للأبرارِ مَـــصُونــــةٌ عـــــن سائرِ الكفارِ

«وجنة النعيم» اعلم أن للجنة عدة أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات فهي مترادفة من هذا الوجه وتختلف باعتبار الصفات فهي متباينة من هذا الوجه، وهكذا أسماء الرب تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله وأسماء اليوم الآخر وأسماء النار، فالاسم العام للجنة المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة العين، واشتقاقها من الستر والتغطية، ومنه الجنين لاستتاره في البطن، والجان لاستتارهم عن العيون، والمجن لستره ووقايته ومنه تسمية البستان جنة؛ لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه فلا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الشجر مختلف الأنواع، والجُنة بالضم ما يستجن به من ترس وغيره.

ومن أسماء الجنة: جنات النعيم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [لقمان: ٨] قال في حادي الأرواح وهذا أيضًا اسم جامع لجميع الجنان لما تضمنه من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن.

وقوله في النظم: (للأبرار) أشار إلى أن هذه اللام لام الاختصاص والاستحقاق

فلا يدخلها ولا يسكنها غيرهم، والأبرار جمع بار وهو كثير البر اسم جامع للخير، ويجمع البار أيضًا على بررة.

وقد ذكر الله في كتابه عدة آيات يخص الجنة بأهل الإيمان والتقوى كقوله تعالى في الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]، وهذا في القرآن كثير ومداره على ثلاث قواعد: إيمان وتقوى وعمل خالص لله عز وجل على موافقة السنة فأهله هذه الثلاثة هم الأبرار، وهم أهل البشرى دون من عداهم من سائر الخلق، وعلى هذه الثلاثة أشياء دارت بشارات القرآن والسنة جميعها وهي تجتمع في أصلين: إخلاص في طاعة الله، وإحسان إلى خلقه وترجع إلى خصلة واحدة وهي موافقة الرب تعالى في محابه ولا طريق إلى ذلك إلا تحقيق القدرة ظاهرًا وباطنًا برسول الله ﷺ.

وأما الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل فهي بضعة وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وبين هاتين الشعبتين التي مرجعها إلى تصديق الرسول في كل ما أخبر به وطاعته في جميع ما أمر به إيجابًا واستحبابًا، واجتناب ما نهى عنه تحريمًا وكراهة.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم** ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي حديث أبي هريرة أيضًا رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره**» أخرجه البخاري ومسلم، وفي رواية لمسلم حفت بدل حجبت.

وقد ثبت أن مفتاح الجنة كلمة الإخلاص وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

قال الحافظ ابن رجب في كتابه التوحيد: في سنده انقطاع. وفي صحيح البخاري عن وهب بن منبه أنه قيل له: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى ولكن ليسَ مفتاح إلا وله أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح.

وفي صحيح البخاري عن جابر ﷺ قال: جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: لصاحبكم هذا مثل، فاضربوا له مثلا، فقالوا: مثله مثل رجل بنى دارًا وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: ولوها يفقهها، فقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان، الدار الجنة، والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمدًا ﷺ قد أطاع الله، ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس «مصونة» أي جنة النعيم محفوظة ومحمية «عن سائر» أي جميع (الكفار) سواء كان كفرهم بالشرك أو الجحود أو إنكار النبوة أو إنكار أحد من الأنبياء أو استحلال ما علم تحريمه أو تحريم ما علم حله من الدين بالضرورة، أو إنكار المعاد الجسماني أو جحود ما علم مجيء النبي ﷺ به بالضرورة، أو جحود الكتب المنـــزلة، أو شيئًا منها، أو ملكًا من الملائكة أو انتقاص ملك نبي، ونحو ذلك فالجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة بإجماع أهل الحق.

وأما أهل الكفر والجحود فهم في نار جهنم لا يفتر عنهم العذاب ولا ينقطع، فعذابهم متواصل في دار الهوان بما كانوا يكفرون كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٧٤- ٧٥].

والآيات في مثل هذا كثيرة، وسأل الحسن البصري أبا مرزة عن أشد آية في كتاب الله تعالى على أهل النار قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النبأ: ٣٠] فقال: هلك القوم بمعاصيهم لله عز وجل. أخرجه ابن أبي حاتم وفيه ضعف.

وفي القرآن العظيم ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ

﴿لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] إلى قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فأشعرت الآية الكريمة بخطر النفس الإنسانية وعظم مقدارها عند ربها، فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر المشتري لها من هو؟ وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع، فالسلعة النفس والله تعالى المشتري لها، والثمن جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية**» قال الترمذي حديث حسن غريب.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر بلالاً ينادي في الناس: أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وفي لفظ: مؤمنة.

وفي كتاب صفة الجنة لأبي نعيم من حديث أبان عن أنس ﷺ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: ما ثمن الجنة؟ قال: «**لا إله إلا الله**» قال الإمام المحقق وشواهد هذا الحديث كثيرة جدًا.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**»، قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئًا ولا أنقص منه، فلما ولى قال ﷺ «**من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**».

وفي صحيح مسلم عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**».

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، عن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**».

وفي الصحيحين عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتاني آت من ربي**

فأخبرني، أو قال فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق».

وفي الصحيحين أيضًا عن عتبان بن مالك الأنصاري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرم على النار من قال لا إلا الله يبتغي بذلك وجهه**» وفي هذا عدة أحاديث تزيد على حد التواتر.

واجـــزم بأن النار كالجنة في وجـــودها وإنهـــا لم تتلف

(واجزم بأن النار) وما فيها من أنواع العذاب موجود الآن ومن قبل الآن «كـــ» ما أن «الجنة» وجميع ما اشتملت عليه من أنواع الملاذ والسرور موجود الآن وقبل الآن، فالنار (في وجودها) الآن كالجنة فهما موجودتان.

قال الإمام المحقق في كتابه حادي الأرواح: لم يزل أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، والتابعون وتابعوهم، وأهل السنة والحديث قاطبة، فقهاء الإسلام، وأهل التصوف، والزهد على اعتقاد ذلك وإثباته مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة، وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة، فأنكروا أن تكون الجنة كالنار الآن مخلوقة، وقالوا: بل الله ينشئها يوم المعاد إلى آخر كلامه فيها.

قال: ولهذا صار السلف الصالح ومن نحا نحوهم، يذكرون في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان، ويذكر من صنف المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون فيها، منهم الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، وفيه أن الجنة والنار مخلوقتان.

ولقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها الجنة كما في الصحيحين من حديث أنس ﷺ ثم ذكر عدة أحاديث، ثم قال: وفي مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله الجنة أرسل جبريل للجنة، فقال: فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فرجع وقال:**

بعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فأمر الجنة فحفت بالمكاره فقال فارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأجلها قال فنظر إليها ثم رجع فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ثم أرسله إلى النار يركب بعضها بعضًا فقال: لا يدخلها أحد فلما حفت بالشهوات قال وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها».

قال الترمذي حديث حسن صحيح ودخوله ﷺ الجنة ورؤيته نهر الكوثر، وقصور الجنة وحورها وثمارها، ودورها، وأضعاف أضعاف ما ذكرنا من الأدلة القطعية التي يفوت عدها ويتعسر حدها (و) اجزم بـــ «أنها» أي النار «لم تتلف»، أي لم تهلك وتبيد يعني: أن النار لا تفنى ولا يفنى ما فيها كالجنة وما فيها. قال المحقق في حادي الأرواح: أما أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد فيما يعلم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ أخبر به قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [هود: ١٠٨] وقوله: غير مجذوذ أي غير مقطوع. وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يجاء بالموت كأنه في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال يا أهل الجنة فيطلعون مشفقين ويقال يا أهل النار فيطلعون فرحين، فيقال هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم: هذا الموت فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت فيها ويا أهل النار خلود ولا موت فيها، ثم قرأ رسول الله** ﷺ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [مريم: ٣٩] **وأشار بيده إلى الدنيا**» وفي الصحيحين أيضًا عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل الجنة لا موت فيها ويا أهل النار لا موت،كل خالد فيما هو فيه**» وفي رواية عنه عندهما فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم، وفي هذا عدة أحاديث فثبت بما ذكر من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الدارين خلودًا مؤبدًا كل بما هو فيه من نعيم وعذاب أليم، وعلى إجماع أهل السنة والجماعة وزعمت الجهمية أن الجنة والنار يفنيان وقال هذا إمامهم جهم بن صفون، وليس له في ذلك سلف قط لا من

الصحابة ولا من التابعين ولا أحد من أئمة الدين، نعم حكى بعض العلماء في أبدية النار قولين:

أحدهما: أن الله تعالى يفنيها؛ لأنه ربها وخالقها لأنه تعالى على زعم أرباب هذا القول جعل لها أمدًا تنتهي إليه ثم تفنى ويزول عذابها قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا عن طائفة من الصحابة والتابعين، ولشيخ الإسلام وتلميذه المحقق ميل إلى هذا القول وذكر على تأييده بضعًا وعشرين وجهًا، ثم قال وما ذكرناه في هذه المسألة من صواب فمن الله وهو المان به وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله ﷺ بريئان منه، والله عند لسان كل قائل وقصده. والله أعلم.

تنبيه

ذهب جمع إلى أن الموت عرض ومعنى، والأعراض لا تنقلب أجسامًا بل زعم بعضهم أن الموت عدم محض وأجاب بعض أهل العلم أن لعل هذا الكبش صورة ملك من الملائكة الذين يقبضون أرواح الخلائق وإلا فالموت في نفسه عدم محض راجع إلى سلب الحياة أو هو استعارة وكناية عن الخلود الدائم، فضرب المثل بالموت ولا موت هناك حقيقة.

وذهب جماعة إلى أن الموت جسم لا عرض وأنه مخلوق في صورة كبش والحياة في صورة فرس. قال الإمام أبو الحسن الأشعري: الموت أمر وجودي لقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الملك: ٢] قال الحياة فرس جبريل والموت كبش أملح، وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن وهب بن منبه قال:خلق الله الموت كبشًا أملح مستتر بسواد وبياض له أربعة أجنحة: جناح تحت العرش وجناح في الثرى وجناح في المشرق، قال له كن فكان ثم قال له ابرز فبرز لعزرائيل.

فائدة

ذكر في البدور السافر للسيوطي أن عند إسماعيل بن زيد الشامي في تفسيره أن الذي يتولى ذبح الموت جبريل عليه السلام، وقيل يحيى بن زكريا عليهما السلام والله أعلم.

تتمة

في ذكر مكان الجنة والنار وأين هما على مقتضى الآثار

اعلم أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها عرش الرحمن، كما قال جل شأنه في محكم القرآن: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝﴾ [النجم: ١٣- ١٥] وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة وسميت بذلك لأنه ينتهي إليها ما ينـــزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝﴾ [الذاريات: ٢٢] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو الجنة، وروى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: الجنة في السماء السابعة ويجعلها الله تعالى حيث شاء يوم القيامة وجهنم في الأرض السابعة.

وثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «**الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**» وهذا يدل على أن الجنة في غاية العلو والارتفاع قال في حادي الأرواح والجنة مقببة أعلاها ووسطها وهو الفردوس وسقفها العرش قاله ﷺ في الحديث الصحيح «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تنفجر أنهار الجنة**» قال في حادي الأرواح: قال شيخنا أبو الحجاج المزي الحافظ والصواب رواية من رواه فوقه بضم القاف على أنه اسم الظرف أي وسقفه عرش الرحمن فإن قيل فالجنة جميعها تحت العرش سقفها، فإن الكرسي وسع السموات والأرض والعرش أكبر منه، فالجواب لما كان العرش أقرب إلى الفردوس مما دونه من الجنان بحيث لا جنة فوقه دون العرش كان سقفًا له دون ما تحته من الجنان لعظم سعة الجنة وغاية ارتفاعها يكون الصعود من أدناها إلى أعلاها بالتدريج شيئًا فشيئًا درجة فوق درجة كما يقال لقارئ القرآن اقرأ وارق فإن منـــزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها وهذا يحتمل شيئين:

أن تكون منـــزلته عند آخر حفظه، وأن تكون عند آخر تلاوته لمحفوظه، وأخرج جويبر في تفسيره عن معاذ بن جبل ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ من أين يجاء بجهنم يوم القيامة؟ قال: «**يجاء بها من الأرض السابعة لها سبعون ألف زمام معلق كل زمام سبعون ألف ملك تصيح: إلي أهلي إلي أهلي فإذا كانت من العباد مسيرة مائة سنة زفرت زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول رب نفسي نفسي**» ولما أنهى الكلام على الجنة والنار أعقب ذلك بقوله:

فنـــسأل الله العظـــيم والنظر	**لـــربنا مـــن غـــير ماشين غبر**
فـــإنـــــه ينـــظر بـــالأبصار	**كمـــا أتـــى في النص والأخبار**

«فنسأل الله العظيم» النعيم المقيم في جنات النعيم «و» نسأل الله العظيم «النظر» «لوجهه» ربنا الكريم «**من غير ما**» زائدة لمزيد من النفي أي من غير «شين» أي عذاب ومناقشة حساب والشين ضد الزين «غبر» بفتح الغين المعجمة والباء الموحدة أي ذهب والمراد سبق يعني غير سابقة عذاب، يقال غبر غبورًا مكث ذهب ظل، وأما النظر إلى مولانا الكريم فهو من أصول أهل الحق خلافًا لأهل الضلال ومن ثم قال (فإنه) سبحانه (ينظر بالأبصار) في دار القرار باتفاق أئمة الدين الأبرار «**كما أتى**» أي جاء (في النص) القرآن أصل الشيء وغايته ومنه قول الفقهاء نص القرآن ونص السنة أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الأحكام وأتى في الأخبار النبوية والآثار السلفية وأجمع عليه أهل الحق، ورؤية الله رب العالمين أعظم وأجل وأشرف وأنعم نعيم الجنة قدرًا وأعلاه وأغلاه خطرًا أو أمرًا وهي الغاية القصوى والنهاية العظمى التي شمر إليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون واتفق عليها الأنبياء والمرسلون والصحابة والتابعون على ثبوتها في دار القرار، وإنما أنكرها أهل البدع والضلال والتجهم والاعتزال قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقال: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] وقال في حق أهل الكفر والفجور ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ﴾ [المطففين: ١٥] وقال

تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٥٠].

وأخرج مسلم والترمذي وابن ماجه عن صهيب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم**» ثم تلا هذه الآية ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ [يونس: ٢٦] يعني أنه يرفع الموانع عن الإدراك عن أبصارهم حتى يروه على ما هو عليه من نعوت العظمة والجلال فذكر الحجاب إنما هو في حق الخلق لا الخالق كذا قال القرطبي في تذكرته.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبعث يوم القيامة مناديًا ينادي بصوت يسمعه أولهم وآخرهم يا أهل الجنة إن الله وعدكم الحسنى وزيادة. الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن**».

قال الإمام الحافظ البيهقي في كتاب الرؤيا: هذا التفسير قد استفاض واشتهر فيما بين الصحابة والتابعين، ومثله لا يقال إلا بتوقيت، وفسروا قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

الباب الخامس

في ذكر النبوة وذكر نبينا محمد ﷺ

وذكر بعض الأنبياء وفضله وفضل أصحابه وأمته صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم وعظم وكرم.

اعلم أن حاجة الخلق إلى إرسال الرسل وبعثه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ضرورية لا ينتظم لهم حال ولا يصلح لهم دين ولا بال إلا بذلك فإنهم أشد احتياجًا إلى ذلك من إرسال المطر والهواء، بل ومن النفس الذي لابد لهم منه كما في مفتاح دار السعادة للمحقق ابن القيم رحمه الله تعالى، والحق أنه جائز عقلاً في حقه سبحانه واجب سمعًا وشرعًا وإلى ذلك أشار بقوله:

ومـــن عـــظيم منه السلام ولطفـــه بـــسائر الأنـــام

أن أرشد الخلق إلى الوصول مبينًا للحق بالرسول ﷺ

«ومن عظيم منه» الرب «السلام» مأخوذة من المن وهو الإحسان إلا من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه، ومن أسماء الله تعالى المنان وهو المنعم المعطي من المن وهو العطاء، وقد يقع المنان على الذي يعطي شيئًا إلا منه، واعتد به على من أعطاه وهو مذموم؛ لأن المنة نفس الصنيعة إذا كانت من غير الباري جل وعلا والسلام من أسمائه تعالى ومعناه ذو السلامة من كل عيب ونقيصة فيكون من أسمائه التنـــزيه، وقيل معناه مالك تسليم العباد من المهالك فارجع إلى معنى القادر.

وقيل ذو السلام على المؤمنين في الجنان فيرجع إلى الكلام القديم الأزل (و) عظيم (لطفه) تعالى أي رفقه بسائر أي جميع «الأنام» كسحاب والأنام بالمد والأنيم كأمير الخلق أو الإنس والجن وجميع ما علا وجه الأرض، والمن بإرسال الرسل شاملة الثقلين بل لكل الخلق «أن» بفتح الهمزة وسكون النون حرف مصدري تسبق ما بعدها بمصدر «أرشد» أي هدى، ودل سبحانه وتعالى وأن ما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ، والخبر قوله في البيت قبله ومن عظيم... الخ.

والتقدير أرشد الخلق إلى الوصول كائن من عظيم منه السلام (الخلق) من الثقلين (إلى الوصول) إلى معرفة الله وعبادته والقيام بما شرعه من التكليف الذي ثمرته الفوز بالسلامة الأبدية والسعادة السرمدية والنعيم المقيم حال كونه (مبينًا) أي مظهرًا وموضحًا (لـــ) نهج (الحق) وهو الحكيم المطابق للواقع ويطلق على الأقوال

والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك ويقابله الباطل «بالرسول» متعلق بيمين، والرسول إنسان أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، وتقدم في صدر الكتاب.

تنبيهان

الأول: في قوله: ومن عظيم منه السلام البيتين، إشارة إلى أن إرسال الرسل وإنــزال الكتب وشرع الشرائع منة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه، ذلك وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق والفضل عليهم فبعثه تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد صلوات الله عليهم أجمعين، إلى المكلفين لطفًا من الله بهم ليبلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ويبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد، مما جاءوا به من شرائعهم وأحكامهم التي نــزلها الله في كتبه عليهم اختصاصًا كالقرآن العظيم، واشتراكًا لتوراة موسى وهارون، ويوشع ومن بعدهم إلى عيسى عليه وعليهم السلام، حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات وتنقطع عنهم سائر التعللات. كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ [طه: ١٣٤] وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء: ١٦٥] فلولا إعذاره تعالى على ألسنة الرسل، وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خيرته ممن ذوي النبوة والفضل، لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة، فإرسال الرسل لمعاضد العقل أمر جائز في حقه وواجب وقوعًا وسمعًا، يزيد هذا وضوحًا.

الثاني: أن الرسالة ضرورية للعباد لا غنى لهم عنها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، فإن الرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا أعدم الروح والحياة والنور والدنيا مظلمة. ملعون كلها إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، وتناله حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا

وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمات الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة، وبنور الإيمان وجعل له نورًا يمشي به في الناس.

وأما الكافر فميت القلب في الظلمات، وسمى الله تعالى رسالته روحًا، والروح إذا عدمت فقدت الحياة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢] فالروح الحياة والنور والإضاءة المزيلة للظلمة، فالكافر في ظلمة الكفر والشرك وهو ميت غير حي، وإن كان فيه حياة بهيمية لكنه عادم الحياة الروحانية العلوية، الناشئة عن الإيمان وبها يحصل للعبد الفوز والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإن الله تعالى جعل الرسل عليهم السلام وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلهم في معاشهم ومعادهم، فبعثوا جميعًا بالدعوة إلى الله تعالى وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه فأرشدوهم إلى توحيده تعالى. وإثبات صفاته وإثبات القدر وذكر أيام الله تعالى في أوليائه وأعدائه وهي القصص التي قصها على العباد والأمثال التي ضربها لهم وأرشدوهم إلى العلم بتفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة وبيان ما يحبه الله تعالى ويكرهه.

وكذلك بينوا لهم وجوب الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار، والثواب، والعقاب وعلى هذه الثلاثة أصول مدار الخلق والأمر والسعادة، والفلاح موقوفة عليها ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل -فلا فلاح إلا باتباع الرسول ﷺ فإن الله تعالى خص بالفلاح أتباعه المؤمنين، وأنصاره كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي لا مفلح إلا هم فالهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجودًا وعدمًا قال النبي ﷺ: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**» قال شيخ الإسلام -روح الله روحه- في قاعدة وجوب الاعتصام بالنبي ﷺ: وهذا المقت لعدم هدايتهم بالرسل فرفع الله عنهم هذا المقت برسول الله ﷺ فبعثه الله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على الخلق أجمعين، وافترض على العباد طاعته

وتوقيره وتعزيره والقيام بأداء حقوقه، وسد إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به، واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين، أرسله بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا. فختم به الرسالة وهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعيناً عمياء، وآذانًا صماء وقلوباً غلفًا فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام به الملة العوجاء، وأوضح به المحجة البيضاء وشرح له صدره ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، أرسله ﷺ على حين فترة من الرسل، ودروس من الكتب حين حرف الكلم وبدلت الشرائع، واستند كل قوم إلى ظلمة آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم النادرة فهدى الله به الخلائق، أوضح فيه الطريق، وأخرج الناس به من الظلمات إلى النور، وميز به بين أهل الفلاح، وأهل الفجور فمن اهتدى بهديه اهتدى ومن مال عن سبيله فقد ضل واعتدى، فصلى الله وسلم عليه وسائر الرسل والأنبياء ما لاح نجم وبدا، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن اقتدى.

وشـــرط مـــن أكـــرم بالنبوة حـــريـــة ذكورة كقوة

(وشرط) مبتدأ (من) أي كل إنسان «أكرم» بضم الهمزة مبينًا لما لم يسم فاعله أي أكرمه الله تعالى (بالنبوة) بضم النون والباء الموحدة وتشديد الواو «حرية» خبر المبتدأ وذلك لأن الرق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة، وشرط من أكرمه الله بالنبوة أيضًا (ذكورة) أي أن يتصف بالذكورية لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [النحل: ٤٣] فأثبت الرسالة للرجال الموحي إليهم وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم فلا تكون أنثى نبية «كقوة» أي كما يعتبر فيمن أكرمه الله تعالى بالنبوة أن يكون قويًا بأعباء ما حمل من ثقل النبوة، يعتبر كونه حرًا ذكرًا، والقوة الطاقة والجمع قوى بالضم وبالكسر ذا عقل صحيح وفهم رجيح، وعلم بالأمور الدينية حسن الخلق والخلق ليسهل عليه تحمل الخلق في مخالطتهم وتعليمهم لأمور

الديانة، فإن الأنبياء منــزهون عن جميع الرذائل من البخل والجبن، واللهو واللغو، وسائر الأخلاق الذميمة، كما أنهم مبرءون من لؤم النسب وشره القلب وحرص النفس على الدنيا، ولهذا لم يبعث نبيًا عبدًا ولا لئيمًا ولا امرأة.

والحاصل: اختصاص النبوة بأشرف أفراد النوع الإنساني من كمال العقل والذكاء والفطنة وقوة الرأي، ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليهما السلام (والسلامة) من كل ما نفر عن الاتباع كدناءة الآباء، وعهر الأمهات، والغلظة والفضاضة، والعيوب المنفرة للطباع، كالبرص والجذام، والأمور المخلة بالمروءة، كالأكل على الطريق والحرف الدنيئة، كالحجامة وكل ما يخل بحكمة البعثة ونحو ذلك.

ولما ذكر ما أشعر بانفراد كل النوع الإنساني بالنبوة واختصاص الذكور والأحرار المنــزهين عن النقائص، خشي أن يتوهم متوهم أن ذلك يدرك بالرياضة والتهذيب والجد والاجتهاد، فنفي ذلك بقوله:

ولا تـــنـــال رتـــبـــة النبـــوة بالكـــسب والفتوة والتهذيب

لكنها فضل من المولى الأجل لمن يشاء من خلقه إلى الأجل

(ولا تنال) بضم التاء المثناة فوق مبينًا لما يسم فاعله أي لم تعط (رتبة) بالرفع نائب فاعل، والرتبة بالضم، والمرتبة: المنــزلة «النبوة» بالجر لإضافتها إلى الرتبة، وهي صفة عالية ينكشف بها من العيوب، التي هي مطلوبات الله تعالى من عباده وأحكامه التي يكلفهم بها انكشافًا يناسب انكشاف رائحة المسك، بجذب النفس إلى الأنف، والمراد بها هنا ما يعم الرسالة كما لا يخفى.

«بالكسب» متعلق بلا تنال «و» لا تنال أيضا با «لتهذيب» أي تنقية البدن، وتصفية الأخلاق وخلوص النية من الأخلاق الرديئة وتنقية الأوصاف الجميلة، والنعوت الجليلة «و» لا تنال أيضًا بـــ «الفتوة» أي كرم النفس وتخليصها من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف الممدوحة.

فمذهب أهل الحق أن النبوة لا تنال بمجرد الكسب بالجد والاجتهاد، وتكلف أنواع العبادات واقتحام أشق الطاعات «لكنها» أي النبوة والرسالة «فضل من المولى

الأجل» سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء من عباده ممن سبق علمه، وإرادته الأزليان، باصطفائه لها. الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهذا خلاف قول الفلاسفة، وعندهم أن القرآن كلام النبي، وهذا من أعظم الكفر.

والحاصل: أن النبوة فضل من الله وموهبة ونعمة يمن بها سبحانه ويعطيها (لمن يشاء) أن يكرمه بالنبوة (من خلقه) ومن زعم أنها مكتسبة فهو زنديق يجب قتله؛ لأنه يقتضي اعتقاده أن النبوة لا تنقطع، وهو مخالف للنص القرآني، والأحاديث المتواترة بأن نبينا ﷺ خاتم النبيين عليهم السلام، ولهذا قال «إلى الأجل» يعني أن النبوة فضل من الله، وكان ذلك ممتدًا من عهد الأب الأول الصفي آدم ﵇، إلى أن بعث الخاتم النبي الحبيب محمد ﷺ، ولهذا قال:

مــنها كلام الله معجز الورى كــذا انــشقاق غير امترا

(منها) أي من معجزات نبينا ﷺ، بل أعظمها وأجلها «كلام الله» المنــزل على النبي المرسل (معجز الورى) كفتى الخلق، جميعهم، إنسهم، وجنيهم أولهم وآخرهم، فهو معجز بنفسه ليس في وسع البشر الإتيان بسورة من مثله وتقدم، و«كذا» من غرر معجزاته ﷺ «انشقاق» البدر أي القمر فانشقاق القمر نصفين ثابت «من غير امتراء» أي من غير شك ولا جدل مأخوذ من المرية بالضم والكسر الشك والجدل وقضية، ذلك كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك ﵁، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى حراء بينهما.

وقال شيبان عن قتادة: فأراهم انشقاق القمر مرتين، وفي حديث ابن مسعود ﵁ عند البخاري ومسلم وغيرهما، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ قالوا: إن كنت صادقًا فشق لنا القمر فرقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ **إن فعلت تؤمنون؟** قالوا: نعم، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما سألوا فانشق القمر فرقتين ورسول الله ﷺ ينادي: يا فلان اشهدوا وذلك بمكة قبل الهجرة.

وروى الطبراني عن ابن مسعود ﷺ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقال قوم: هذا سحر ساحركم ابن أبي كبيثة فاسألوا السفار يقدمون عليكم، فإن كان مثلما رأيتم فقد صدق وإلا فهو سحر، فقدم السفار فسألوهم فقالوا: نعم، قد رأينا انشقاق القمر.

قلت: قد ثبت انشقاق القمر بنص القرآن العظيم وبالسنة الصحيحة الصريحة وقد بلغت الأحاديث بذلك مبلغ التواتر وأجمع على ذلك أهل الحق، وهذا من خصائص نبينا محمد ﷺ التي اختص بها عن سائر المرسلين والنبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وهذا من أمهات معجزاته التي لا بعد لها بعد القرآن شيء ولا بعد لها آية من آيات الأنبياء عليهم السلام لظهور ذلك في ملكوت السموات خارجًا عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع فهو آية عظيمة ومعجزات جسيمة.

تنبيهان

الأول: قال شيخ الإسلام ابن تيمية -روح الله روحه- في الجواب الصحيح: آياته ﷺ المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير منها أنوع: ما هو في العالم العلوي كانشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة ومعراجه إلى السماء. قال: وإنما جعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب؛ لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم وكان الانشقاق فيما دون جزاء الفلك؛ لأنه مستنير فيه الانشقاق لكل من رآه ظهورًا لا يتمارى فيه. فإذا قبل الانشقاق فقبول محله أولى بذلك قال: وفيه حكمتان عظيمتان. إحداهما كونه من آيات النبوة والثانية أن فيه دلالة على جواز انشقاق الفلك وأن ذلك دليلاً واضحًا على ما أخبرت به الرسل عليهم السلام من انشقاق السموات خلافًا للفلاسفة في زعمهم أن الفلك لا يقبل الخرق والالتئام، ومنها ما هو في الجو كاستسقائه واستصحائه وطاعة السحاب في حصوله، وذهابه، ومنها تصرفه في الأشجار والخشب والأحجار، ومنها تصرفه في الحيوانات، الإنس والجن والبهائم، ومنها تأييده بملائكة السماء ومنها كفاية الله تعالى

له أعداءه وعصمته من الناس، ومنها إجابة دعائه ومنها إعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة، ومنها تأثيره في تكثير الماء والشراب والطعام والثمار، وغير ذلك من دلائل نبوته وإعلام رسالته ومعجزاته الظاهرة وآياته الباهرة.

الثاني: أن نفسه أي النبي ﷺ الشريفة الباهرة وطلعته الظاهرة وسمته ليدل العقل على صدقه، ولهذا قال عبد الله بن سلام ﷺ فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ومن سمع كلامه ورأى آدابه لم يدخله شك في نبوته. قال الحافظ ابن الجوزي وغيره. وثبت في عدة أخبار أنه ﷺ كان في صغره يعرف بالأمانة والصدق وجميل الأخلاق.

وقد قال هرقل في حديث أبي سفيان: ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. قال شيخ الإسلام قال نفطويه في قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ ﴾ [النور: ٣٥] هو مثل ضربه الله لنبيه محمد ﷺ يقول يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآنًا، كما قال عبد الله بن رواحة ﷺ لو لم تكن فيه آيات بينة.

فصل

في ذكر فضيلة نبينا وأولي العزم وغيرهم من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأفضل العالم من غير امترا   نبينا المبعوث في أم القرى

«وأفضل العالم» العلوي والسفلي من ملك وبشر وجن في الدنيا والآخرة في سائر خلال الخير وخصال الكمال ونعوت المكارم والجمال «من غير امتراء» أي شك ولا ريب. قال في القاموس العالم الخلق كله وما حواه بطن الفلك نبينا» خبر المبتدأ الذي هو أفضل العالم محمد «المبعوث» رسولا للثقلين قيل والملائكة «في أم القرى» مكة المشرفة. قال الحافظ ابن الجوزي في تسميتها بذلك أربعة أقوال:

الأول: لأن الأرض دحيت من تحتها قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقال ابن قتيبة: لأنها أقدمها.

الثاني: لأنها قبلة يؤمها جميع الناس.

الثالث: لأنها أعظم القرى شأنًا.

الرابع: لأن فيها بيت الله عز وجل، ومن أعظم ما يدل على تعظيم نبينا وفضله على سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أن الله سبحانه وتعالى أقسم بحياته، وفي شرعه إنما تنعقد الأيمان بأسماء الله تعالى وصفاته وكلامه لا بدون ذلك. قال الإمام الحافظ ابن الجوزي في الوفا: أقسم الحق عز وجل بحياته وإنما يقع القسم بالمعظم والمحبوب قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

وأخرج الترمذي وغيره من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما خلق الله وذرأ نفسًا هي أكرم عليه من محمد ﷺ. ما سمعت أن الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ قال الإمام ابن عقيل رحمه الله تعالى وأعظم من قوله لموسى ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١] قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وبيان ذلك أنه جعل اللام في قوله: واصطنعتك لنفسي التي هي للملك والاختصاص بينه وبينه ولم يجعل بينه تعالى وبين سيدنا محمد ﷺ واسطة بل قال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ [البلد: ١- ٢] المعنى أقسم بك لا بالبلد فإن أقسمت بالبلد فلأنك فيه، ثم قال ابن عقيل يا موسى اخلع نعليك ولا تجيء إلا ماشيًا يا محمد اركب البراق ولا تجيء إلا راكبًا.

فصل

في ذكر الصحابة الكرام بطريق الإجمال والتعريف بما يجب لهم من المحبة، والترضي والتفضيل على سائر الأمة، وتقبيح من آذاهم، والكف عما جرى بينهم مما لعله لم يصح عنهم، وما صح فله تأويلات سائغة.

وإذا كان لأحد منهم هنات تقع مكفرة مستهلكة في عظيم حسناتهم، ثم التابعين لهم بإحسان، ولهذا قال:

ولــيس في الأمــة كالصحابة　　في الفــضل والمعروف والإصابة

«وليس في الأمة» المحمدية المفضلة على سائر الأمم «كالصحابة» الكرام الذين فازوا بصحبة خير الأنام فمعتمد القول على أئمة السنة أن الصحابة كلهم عدول قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قيل اتفق المفسرون ذلك في الصحابة، لكن الخلاف بالتفاسير مشهور، ورجح كثير عمومها في أمة محمد ﷺ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وهذا خطاب للموجودين حينئذ، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]، فليس في الأمة المحمدية مثل الصحابة الكرام «في الفضل» بشاهد ما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**» هذا وإن ورد على سبب، وهو ما جرى بين عبد الرحمن بن عوف، وبين خالد بن الوليد رضي الله عنهما، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولا ينافي ذلك كون الخطاب لأصحابه، فإن المراد لا يسب غير أصحابي أصحابي ولا يسب بعضهم بعضًا، فالمراد النهي عن حصول السب لهم مطلقًا، فمن تأمل ما ذكرنا حق التأمل، وأعطى المقام حقه، نجا من قبح ما انتحلته الرافضة، وفضيح ما ذهبت إليه فرق الإلحاد في آيات الله، وأحاديث رسول الله ﷺ من الإفك والمناقضة، فالحذر الحذر من أدنى شائبة تؤدي بتلك المناصب الشامخة، والعلوم الراسخة، ولهذا نقول:

واحذر من الخوض الذي قد يزري　　بفــضلهم مما جرى لو تدري

فــإنــه عــن اجتهــاد قد صدر　　فاســلم أذل الله من لهم هجر

واحذر حذر إذعان وتسليم مع سلامة صدر، وامتثال أمر النبي الكريم ﷺ «من الخوض» المفضي إلى التنقيب «الذي قد يزري»، وينقص ويحط (بفضلهم) المعلوم من الكتاب والسنة عند ذوي العلوم، «مما» أي من الاختلاف، والتخاصم والتشاجر الذي «جرى» بينهم «لو» كنت «تدري» غب ذلك الخوض المفضي إلى توليد الإحن،

وحزازات القلوب، والحقد على أصحاب رسول الله ﷺ.

وذلك من أعظم الذنوب فإنهم خير القرون وهم السابقون الأولون، وذلك أنه جرى بين علي، ومعاوية، وقبلهما، وبعدهما من المنازعات والمقاتلات ما لو صدرت من سواهم وكانت من غيرهم لم تقصر عن التفسق فضلا عن غيره.

والجواب عن ذلك ما أشير إليه بقوله: (فإنه) أي التخاصم والنـــزاع والتقاتل عن اجتهاد قد صدر من كل واحد من رؤساء الفريقين، ومقصد لكل فرقة من الطائفتين، وإن كان المصيب في ذلك واحد، وهو على ﷺ، ومن والاه، والمخطئ

من نازعه وعاداه، غير أن للمخطئ في الاجتهاد أجرًا، وثوابًا خلافًا لأهل الجفاء والعناد، فكل ما صح مما جرى بين الصحابة الكرام، وجب حمله على وجه ينفي عنهم الذنوب والآثام، فمقاولة علي مع العباس ﷺ لا تفضي إلى شين، وتقاعد علي ﷺ عن مبايعة الصديق الأعظم في بادئ الأمر، كان لأحد أمرين. إما لعدم مشورته كما عتب عليه بذلك، وإما وقوفًا مع خاطر سيدة نساء العالمين فاطمة البتول عليها السلام، مما ظنت أنه لها وليس الأمر كما هنالك. ثم إن عليًّا بايع الصديق رضي الله عنهما على رؤوس الأشهاد فاتحدت الكلمة ولله الحمد، وحصل المراد، وتوقف علي ﷺ عن الاقتصاص من قتلة عثمان. إما لعدم العلم بالقاتل، وإما خشية تزايد الفساد والطغيان.

وكانت عائشة، وطلحة، والزبير، ومعاوية ﷺ، ومن اتبعهم ما بين مجتهد ومقلد في جواز محاربة أمير المؤمنين علي ﷺ، وقد اتفق أهل الحق أن المصيب من غير شك، والحق الذي ليس عنه نـــزول أنهم كلهم رضوان الله عليهم عدول، ولهذا اتفق أهل الحق ممن يعتد به في الإجماع على قبول شهادتهم، ورواياتهم وثبوت عدالتهم.

ولهذا قال علماؤنا كغيرهم من أهل السنة: يجب حب كل الصحابة، والكف عما يجري بينهم كتابة، وقراءة وإقراء، وسماعًا وتسميعًا، ويجب ذكر محاسنهم والترضي عنهم، وترك التحامل عليهم، واعتقاد العذر لهم، ولهذا قال: (فاسلم) من

الخوض في تلك البحور، ثم إن الناظم دعا على طائفة الجفاء، والفجور فقال «أذل الله» سبحانه، وقد فعل «من» أي كل مبتدع من الرافضة «لهم» أي للصحابة أو بعضهم «هجر»، وعادى، ولم يوال.

قال الإمام أبو زرعة وهو من أجل شيوخ مسلم: إذا رأيت الرجل ينقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنه زنديق، وذلك أن القرآن حق، والرسول ﷺ حق، وما جاء به حق، وما أدى إلينا ذلك إلا الصحابة، فمن جرحهم إنما أرد إبطال الكتاب والسنة فيكون الجرح به أليق، والحكم عليه بالزندقة أقوم وبالضلال أحق.

وقال ابن حزم: الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعًا. قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ﴾ [الحديد: ١٠] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فثبت أن جميعهم من أهل الجنة. قال العلامة بن حمدان: من سب أحداً من الصحابة مستحلا كفر، وإن لم يستحل فسق عنه يكفر مطلقًا، وإن فسقهم أو طعن في دينهم أو كفرهم كفر، والله أعلم.

ولما أنهى الكلام على الصحابة الكرام حسبما يقتضيه المقام ذكر التابعين لهم بإحسان ثم تابعيهم كما قال خير الأنام فقال:

وبعـــدهم فالـــتابعون أحرى   بالفـــضل ثم تابعـــوهم طرا

«وبعدهم» أي الصحابة «فالتابعون» لهم بإحسان «أحرى» أي أحق وأجدر «بالفضل»، والتقديم على غيرهم من سائر أهل الإيمان، وتعريف التابعي هو كل من صحب الصحابي، ومطلقه مخصوص بالتابعي بإحسان، ويقال في الواحد تابع وتابعي، ولا بد في التابعي من زيادة ما تعتبر به الصحبة في الصحابي كما تقدم، ولهم طبقات بالنسبة إلى من اجتمع بعشرة أو ثلاثة من الصحابة، وبالعلم والزهد وغير ذلك.

وقد اختلف في أفضل التابعين، قال سيدنا الإمام أحمد وغيره: أفضل التابعين سعيد بن المسيب، وقال قوم: أويس بن عامر، ويقال عمرو، وكنيته أبو عمرو، وهو القرني، واستدلوا له بحديث «**خير التابعين أويس**» رواه الحاكم عن علي عن النبي ﷺ.

وفي صحيح مسلم: «**أن خير التابعين رجل يقال له: أويس وله والدة، وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم**».

والقرني: بفتح القاف والراء وهو بطن من مراد. فإن قيل: كيف استجاز الإمام أحمد ومن نحا نحوه تفضيل سعيد بن المسيب على سائر التابعين مع وجود النص الصريح بالنقل الصحيح في تفضيل أويس؟

فالجواب: أن مراد سيدنا الإمام أحمد وأضرابه، أفضلية سعيد في العلوم الشرعية، كالتفسير، والحديث، والفقه، ونفع الأمة بذلك ومما بلغه عن الصحابة الكرام عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام. فإنه الإمام الحافظ الثقة المأمون. حتى قيل فيه: أعلم أمة محمد بدين محمد ﷺ محمد سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى.

والدليل على أفضلية التابعين قول النبي ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، «**ثم إن بعدهم قومًا يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون يظهر فيهم السمن**» زاد في رواية، «**ويحلفون ولا يستحلفون**» رواه البخاري،ومسلم، والترمذي من حديث عمران بن حصين ﷺ.

وقد قال النبي ﷺ: «**لا تمس النار مسلمًا رآني أو رأى من رآني**» رواه الترمذي من حديث جابر. قال طلحة: فقد رأيت ابن عبد الله رضي الله عنهما، وقال موسى: قد رأيت طلحة، وقال يحيى، وقال لي موسى وقد رأيتني ونحن نرجو الله تعالى.

قال الإمام المحقق في أول كتابه إعلام الموقعين: ألقى الصحابة الكرام إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصًا صافيًا، وكل سندهم عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سندًا صحيحًا عاليًا، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا، وقد عهدناه إليكم، وهذه وصية ربنا، وفرضه علينا، وهي وصيته،وفرضه عليكم، فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم، واقتفوا آثار صراطهم المستقيم.

ولهذا قال «ثم» الأفضل بعد التابعين (تابعوهم) أي أتباع التابعين لما تقدم من

صحيح الأخبار، وصريح الآثار «طرا» أي جميعًا، وهو منصوب على المصدر أو الحال لأنهم سلكوا مسلكهم الرشيد ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤﴾ [الحج: ٢٤] ثم جاء الأئمة من القرن الرابع المفضل في إحدى الروايتين كما ثبت في الصحيح قوله ﷺ: «**خير الناس قرني**» الحديث.

والقرن: أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، والأصح أنه لا يضبط بمدة، فقرنه ﷺ هم أصحابه، وكانت مدتهم من المبعث إلى آخر من مات من أصحابه وهو أبو الطفيل مائة وعشرين سنة، وقرن التابعين من نحو مائة إلى سبعين سنة، وقرن أتباع التابعين من ثم إلى حدود العشرين ومائتين.

وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورًا فاشيًا، وامتحن أئمة الدين وعلماء المسلمين ليقولوا بخلق القرآن، وكان المقصود منهم إمامنا الأعظم أحمد رحمه الله فقام بأمر السنة أتم قيام وعاضده عليها أئمة أعلام، وحفّاظ للدين فخام، شكر الله سعيهم، وثبتنا على نهجهم آمين.

فصل

في المفاضلة بين البشر والملائكة

وهي مسألة عظيمة كثر فيها الاختلاف فلذا قلنا:

وعـــندنا تفـــضيل أعيان البشر   علـــى مـــلاك ربنا كما اشتهر

قال: ومن قال سوى هذا افترى   وقـــد تعدى في المقال واجترى

(وعندنا) معشر أهل السنة (تفضيل أعيان البشر) محركة الإنسان ذكر أو أنثى، والمراد بأعيانهم الأنبياء عليهم السلام، والأولياء، فالأنبياء أفضل من الأولياء، وهما أفضل من الملائكة.

قال أبو الوفاء ابن عقيل: الأنبياء أفضل من الملائكة، وجبريل وإسرافيل وميكائيل أفضل من الأولياء.

وقال سيدنا الإمام أحمد ﷺ: بنو آدم أفضل من الملائكة، ولذا قلنا «على ملاك ربنا» تعالى «كما اشتهر» ذلك من نصوص إمامنا، والملاك هو الملك، وجمعه

ملائكة، وحذفت همزة ملاك لكثرة الاستعمال، وأصل وزنه مفعل، فقيل: ملك. وقد تحذف الهاء من الجمع فيقال: ملائك، وأصله ملاك بتقديم الهمزة من الألوكة، وهي الرسالة، ثم قدمت اللام على الهمزة في الجمع «قال» إمامنا «من قال سوى هذا» أي غير القول بتفضيل بني آدم على الملائكة فقد «افترى» أي أتى بكلام خطأ يشعر بالافتراء «وقد تعدى» أي جاوز الحد في «المقال» الذي اعتمد «واجترى» أي افتات على الشارع بالاعتقاد الذي اعتقده.

قال المحقق في بدائع الفوائد: سئل شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية -روح الله روحه- عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب: بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية. فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منـــزهون عما يلبسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة، فتصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة. قال: وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه.

وقد قال بعض السلف من العلماء: مسألة تفضيل البشر على الملك، والملك على البشر ليست مما يجب اعتقاده، ويضر الجهل به، ولو لقي العبد ربه ساذجًا من المسألة بالكلية لم يكن عليه إثم فما هي مما كلف الناس بمعرفته.

قال القاضي تاج الدين السبكي: الذي أفهمه عن الوالد السلامة والسكوت عن هذه المسألة.

ثم قال رحمه الله تعالى: وما للسوقة، والدخول بين الملوك، وأعنى بالسوقة في هذا مثالنا، وبالملوك الأنبياء والملائكة عليهم السلام.

الباب السادس

في ذكر الإمامة ومتعلقاتها[1]

(١) وينظر الفصل الخامس والعشرون من مقدمة ابن خلدون (في معنى الخلافة والإمامة).
وقد عرف الخلافة بأنها هي (حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الدنيوية والأخروية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به).
ثم يوضح في الفصل الثاني حقيقة هذا المنصب (بأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسية الدنيا به، تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة، وإماماً).
فأما تسميته إمامًا فتشبيهًا بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا تقال (الإمامة الكبرى)، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي ﷺ في أمته، فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله ﷺ. مقدمة ابن خلدون.
أما الشيعة فإنهم الذين شاعوا عليًا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته: نصًا ووصية، إما جليًا وإما خفيًا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو تبعية من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وتنصيب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله. ص ١٣١، الملل والنحل ج ١ للشهرستاني.

قال علماؤنا كغيرهم نصب الإمام الأعظم فرض كفاية. فلهذا قلنا:

ولا غـنى لأمـة الإسـلام	**في كـل عـصر كان عن إمام**
يـذب عـنها كـل ذي جحود	**ويعـتني بالغـزو والحـدود**
وفعـل معـروف وتـرك نكر	**ونـصر مظلـوم وقمـع كافر**
وأخـذ مـال الفـيء والخراج	**ونحـوه والـصرف في منهاج**

(ولا غنى) ولابد (لأمة) دين الإسلام في كل عصر من الأعصار (كان) أي وجد (عن إمام) ومتعلق بقوله لا غنى، بل هو فرض كفاية لازم لمسيس الحاجة إليه، فإنه ﷺ أمر بإقامة الحدود، وسد الثغور، وتجهيز الجيش للجهاد، وحماية البيضة، والذب عن الحوزة.

ولذا قلنا (يذب) أي يدفع (عنها) أي عن ملة الإسلام (كل ذي) أي صاحب (جحود) أي إنكار، أي للجاحد للدين القويم، وأضرابه (ويعتني) ذلك الإمام أي يهتم (بالغزو) أي غزو الكفار ويعتني بإقامة (الحدود) جمع حد، فيقيم الحدود، لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق العباد (و) يعتني أيضًا بالأمر بـ (فعل معروف وترك منكر) معطوف على ما قبله (و) يعتني بـ (نصر مظلوم) من ظالمه وتخليص وأخذ حقه ممن هو عليه ونحو ذلك (وقمع) أهل (كفر) أي قهرهم وذلهم.

«و» يعتني أيضًا بـ (أخذ مال الفيء) من جهاته المذكورة في كتب الفقه، سمي فيئًا؛ لأنه راجع منها إلى أهل الإسلام، فإنه في الأصل لهم، ثم رجع إليهم، وهو ما أخذ من مال كافر بحق الكفر بلا قتال كالجزية (والخراج) وزكاة تغلبي وعشر مال تجارة حربي،ونصفه من ذمي (ونحوه).

(و) يعتني أيضًا بـ (الصرف) لذلك المال المذكور (في منهاج) أي طريق وجهة مصرفه المعينة له شرعًا فيصرف في مصالح أهل الإسلام، ويبدأ بالأهم من المصالح العامة من وظائف جند الإسلام، وعمارة الثغور وما يحتاج إليه من السلاح،

والكراع، وسد البثوق، وكري الأنهار، وعمل القناطر والمساجد، وأرزاق القضاة والأئمة، والمؤذنين والفقهاء، وما يعود نفعه على المسلمين، فإن فضل منه شيء قسم على المسلمين غنيهم وفقيرهم.

ونـــصبه بالـــنص والإجمـــاع وقهـــره فحـــل عـــن الخداع
وشـــرطه الإســـلام والحـــرية عدالـــة سمـــع مـــع الدريـــة
وأن يكـــون من قريش عالمًا مكلفًـــا ذا خـــبرة وحاكمـــا

(و) يثبت (نصبه) أي الإمام (بالنص) من الإمام كما عهد أبو بكر بالخلافة إلى عمر ﷺ (و) يثبت أيضًا بــ (الإجماع) من أهل الحل والعقل. كإمامة الصديق. فإذا بايعه أهل الحل والعقد والعلماء، ووجوه الناس ثبتت إمامته،وكذا يجعل الأمر شورى في عدد محصور كما فعل عمر «و» يثبت نصبه أيضًا بــ «قهره» الناس بسيفه حتى يذعنوا له، ويدعوه إماماً؛ لأن عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير رضي الله عنهما فقتله، واستولى على البلاد وأهلها، حتى بايعوه طوعًا وكرهًا، ودعوه إمامًا، ولما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين وإراقة دمائهم، وذهاب أموالهم، ولذا قلنا «فحل» أمر إرشاد أي بعد وذل، ومنه ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٨] «عن الخداع» متعلق بحل يعني اترك مخادعة أهل البدع من جواز الخروج على الإمام. ثم ذكر شروط الإمام فقال:

(وشرطه الإسلام والحرية) وشرطه فيه أيضًا (عدالة) نعم إن قهر الناس غير عدل فهو إمام، نص الإمام أحمد في مثل ذلك، ويعتبر فيه أيضًا «سمع» أي يكون سميعًا بصيرًا ناطقًا (مع الدرية) بفتح الدال المهملة، وكسر الراء، وتشديد التحتية فهاء تأنيث من الدراية، وهي العلم والخبرة (و) يعتبر أيضًا (أن يكون) الإمام (من قريش) ويعتبر أيضًا أن يكون عالمًا بالأحكام (مكلفًا) أي بالغًا عاقلا، وأن يكون (ذا خبرة)» بتدبير الأمور (و) أن يكون (حاكمًا) أي قادرًا على إيصال الحق إلى مستحقيه، وإذا عقدت له الإمامة:

وكن مطيعًا أمره فيما أمر ما لم يكن بمنكر فيحذر

فكن مطيعًا أنت وسائر رعيته أمره فيما أمر إن كان طاعة.

والحاصل: أن طاعته تجب في الطاعة وتسن في المسنون، وتكره في المكروه فإذا أمر بمعروف وجب امتثال أمره (ما لم يكن) أمره (بـــ) شيء (منكر) ضد المعروف (فـــ) فلا يطاع في ذلك بل (يحتذر) ويجتنب.

فصل
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولما كان صلاح العباد لا يتم إلا بذلك قال:

واعلـــم أن الأمـــر والنهي معًا فرضـــا كفاية على من قد وعا
وإن لم يكـــن ذا واحـــدًا تعينا علـــيه لكـــن شرطه أن يأمنا
فاصـــبر وزل بالـــيد واللسان لمنكـــر واحـــذر من النقصان

واعلم بأن الأمر أي بالمعروف (والنهي) عن المنكر معًا، أي كل واحد منهما منفردًا وكلاهما (فرضا كفاية) على جماعة المسلمين (على من قد وعا) أي حفظ حكمه وعلمه وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وفي الحديث عن أبي بكر ﷺ أنه خطب الناس على منبر رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] وأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**» وفي لفظ (من عنده) رواه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن صحيح (وإن يكن ذا) أي الذي علم بالمنكر (واحدًا)، أو كانوا عددًا، ولكن لا يحصل المقصود إلا بهم جميعًا (تعينا) أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصارا فرضا عين (عليه)

أو عليهم (لكن شرطه) أي افتراضه، (أن يأمنا) بألف الإطلاق على نفسه وأهله وماله، ولم يخف سوطًا، ولا عصا، ولا أذى، ولا فتنة تزيد على المنكر وقيل: إن زادت وجب الكف، وإن تساويا سقط الإنكار.

قال الإمام أحمد ﷺ: يأمر بالرفق والخضوع فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد أن ينتصر لنفسه، ولهذا قال: «فاصبر» على الأذى «وزل» المنكر، وغيره من أزله عن مكانه (باليد)، هو أعلى درجات الإنكار «و» غير المنكر بـــ (اللسان) حيث لم تستطع تغييره باليد بأن تعظه، وتذكره بالله وأليم عقابه، وتعنفه مع لين وإغلاظ، بحسب ما يقتضيه الحال، وقد يحصل المقصود بالرفق والسياسة بأزيد،وأتم مما يحصل بالعنف والرياسة، كأن يقول لمن رآه متكشفًا في حمام، ونحوه: استر سترك الله، ونحو ذلك (لمنكر) متعلق بزل (واحذر) من النزول من أعلى المراتب حيث قدرت على أن تغير المنكر باليد إلى أوسطها، وهو الإنكار بلسانك إلا مع العجز عن ذلك، فلا يسوغ لك العدول عن التغيير للمنكر باللسان، وأنت تقدر عليه إلى الإنكار بالقلب، وهو أضعف الإيمان فلذا أحذر (من النقصان).

وأشار بذلك إلى حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» رواه مسلم وغيره. قال ابن مسعود ﷺ: هلك من لم يعرف المعروف، وينكر المنكر بقلبه يشير إلى أن معرفة المعروف،والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد فمن لم يعرفه هلك.

قال سفيان الثوري -قدس الله روحه-: لا يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر إلا من كانت فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى، وقال الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه: الناس يحتاجون إلى مداراة ورفق، الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معلن بالفسق فلا حرمة له، كون الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر عدلاً بما ينهي، أشار بقوله:

ومـــن نهى عما له قد ارتكب فقـــد أتى مما به يقضي العجب

فلـــو بـــدا بـــنفس فـــذادها عـــن غـــيها لكـــان قد أفادها

(ومن) أي إنسان (نهى) الناس (عما له قد ارتكب) وفعله (فقد) والله (أتى) من قاله، وحاله (مما) أي من العمل الذي (به) أي منه «يقضي» بأنبائه لم يسم فاعله (والعجب) نائب فاعل أي يقضي العقلاء، وأهل العلم من مخالفة قوله لعمله العجب، روى الطبراني بإسناد حسن عن جندب بن عبد الله ﷺ. عن رسول الله ﷺ قال: «**مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل السراج، يضيء للناس، ويحرق نفسه**»، كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى لا تذكر الدنيا في مجلسه، ولا تذكر عنده، والنفوس مجهولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعمله، ولا ينتفع به، ولهذا قال «فلو بدا» الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر «بنفسه» متعلق ببدا (فذادها) أي منعها وردها «عن غيها» متعلق بذادها أي عن ضلالها «لكان» ببدايته بإرشاد نفسه «قد أفادها» النجاة والرشد.

تنبيهات

الأول: ما قدمنا من كون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مستقيم الحال هو عين الكمال، والمؤثر أمره، ونهيه في القلوب، والذي قاله، وحاله ترياق الذنوب، وأما الوجوب فلا يسقط عن المكلف، وإن كان بغير تلك الأوصاف، فعلى مرتكب الذنب النهي عن مثل ما ارتكب لأن تركه للمنكر، ونهيه فرضان متمايزان ليس لمن يترك أحدهما أن يترك الآخر، فيجب على متعاطي الكأس أن ينكر على الجلاس؛ لأن النهي عن المنكر واجب، والانكفاف عن المحرم واجب، والإخلال بأحد الواجبين لا يمنع وجوب فعل الآخر. وقد روى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا «**مروا الناس بالمعروف وإن لم تعملوا به، وانهوا عن المنكر وإن تتناهوا عنه كله**» وقيل للحسن: إن فلانًا لا يعظ بقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل. قال الحسن: وأينا يفعل ما يقول، ود الشيطان أنه قد ظفر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.

الثاني: متعلق وجوب الإنكار الرؤية للمنكر وتحققه فلو كان مستورًا فلم يره فالمنصوص عن الإمام أحمد في أكثر الروايات أنه لا يتعرض له، ولا يفتش على ما

استراب، وإذا سمع صوت ملهاة، ولم يعلم مكانه فلا شيء عليه، وأما تسور الجدران على من علم اجتماعهم على منكر، فقد أنكره الأئمة، مثل سفيان الثوري وغيره، وهو داخل في التجسس المنهي عنه.

الثالث: الذي يجب إنكاره هو ما كان مجمعًا عليه، فأما المختلف فيه فمن علمائنا من قال: لا يجب إنكاره على من فعله مجتهدًا مقلدًا لمجتهد سائغًا أو عذرًا ظاهرًا. والله تعالى الموفق.

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه

وما توفيقي إلا بالله.

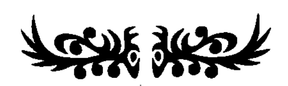

فهرس المحتويات

AL-MŪJAZ FĪ AL-ᶜAQĪDAH AL-ᵓISLĀMIYAH

The summary of the Islamic belief
A summary of al-imam al-Safarini's doctrine

Introduced and summarized by

Dr. Muṣṭafā Ḥilmi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon